T
37A

النظم الإدارية الساسانية

في دولة الخلفاء

وما ظهر لها من أثر

في الأدب العربي

وهي رسالة قدمت الى دائرة الدروس العربية في كلية العلوم والاداب بجامعة بيروت الاميركية

لنيل شهادة

استاذ في العلوم

بقلم

محمد محمدى

بيروت

١٩٤١

فهرس الكتاب

توطئـــــــــــة ١ ـ ٨

نظـرة عامة =

الفصـل الاول ٩ ـ ٤٩

نظـام الديوان في ايران قبل الاسلام

مقدمة تاريخية

عـدد الدواوين في الدولة السامانيه

الكتّاب العرب في ديوان الاكاسرة

الكتّاب كطبقة اجتماعية

مكانة الكتّاب من الدولة وثقافتهم

كيفية العمل في الدواوين

اسلوب الانشاء

البيان والبلاغـة

الفصل الثاني = ٥٠ ـ ٧٩

النظم الساسانية ودولة الخلفاء

علاقات العرب بالفرس قبل الاسلام

الديوان في العصر الاول

الهرمزان

الخلافة والملك

الاسلام والنظم المالية الايرانية

نقل الديوان الى العربية

بقاء الاصطلاحات الفارسية في الديوان

العناصر الفارسية في الدولة العباسيه .

الفصل الثالث ٨٠ - ١٠٣

الكتاب وعمال الدواوين
ظهور طبقة الكتاب في المجتمع العربي
البيوت الفارسية القديمة التي توارثت
الكتابة منذ عهد الاكاسرة
اكثر الكتاب في دولة الخلفاء من الفرس
ثقافة الكتاب ومصادرها
الكتب الادبية الفارسية ونقلها الى العربية
ما وضع في العربية على غرارها
وصف الجاحظ لكتاب عصره
الكتاب في مظاهرهم الخارجية

الفصل الرابع
الكتابة العربية وتطورها في القرن الثاني ١٠٤ - ١٢٥
الكتابة في الجاهلية
النثر العربي في القرن الاول
تطور الكتابة في القرن الثاني
التطور من حيث المعاني والافكار
" من حيث الاسلوب
الطريقة الحميدية

بعض ملاحظات .

معجم المصادر

القديمة والحديثة

١ — المصادر العربية والفارسية

الآثار الباقية	للبيروني	ليبزك	١٨٧٨
ابن المقفع	لخليل مردم	دمشق	١٩٣٠
احسن التقاسيم	للمقدسي	ليدن	١٩٠٦
الاخبار الطوال	للدينوري	ليدن	١٨٨٦
ادب الكاتب	لابن قتيبه	ليدن	١٩٠١
ادب الكتاب	للصولي	مصر	١٣٤١
الاشتقاق	لابن دريد	مجلة المقتبس	السنة الثالثة
الاعلاق النفسية	لابن رسته	ليدن	١٨٩١
الاغاني	للاصفهاني	مصر	دار الكتب
امراء البيان	محمد كرد علي	مصر	١٩٣٧
برهان قاطع	للتبريزي	طهران	١٣١٧ (الهجرية الشمسية)
البلدان	لابن الفقيه	ليدن	١٨٨٥
البلدان	لليعقوبي	ليدن	١٨٩١
البيان والتبيين	للجاحظ	مصر	السندوبي
التاج	للجاحظ	مصر	١٩١٤
تاريخ الكامل	لابن الاثير	ليدن	١٨٦٦
= ابن بطريق	لابن بطريق	مخطوطة للمكتبة الشرقية اليسوعية بيروت	تحت رقم (١)
= التمدن الاسلامي	لجرجي زيدان	مصر	١٩٢٢ (الطبعة الثالثة)

تاريخ سنى ملوك الارض	لحمزه الاصفهاني	كلكته	١٨٦٦
= الرسل والملوك	للطبرى	ليدن	١٨٧٩
= زين الاخبـــار	لگرديزى	طهران	١٣١٥ (الهجرية الشمسية)
= كزيده	للقزويني (متوفى)	لندن	١٩١٠
= الحكماء	للقفطي		
= ترجمة الشانامة	للبندارى	دار الكتب المصرية	١٩٣١
تطور الاساليب النثرية	للاستاذ مقدسي	بيروت	١٩٢٥
التبنيـــة والاشراف	للمسعود ى	ليدن	١٨٩٤
ثلاث رسائل	للجاحظ	القاهره	١٣٤٤
جهار مقالـــــه	للنظامى	برليـن	١٩٢٧
خزانة الادب	للبغدادى	مصـــر	بولاق
الحيوان	للجاحـــظ	مصـــر	بولاق
الدرة اليتيمة	لابن المففـــع	مجلة المقتبس	السنة الثالثـــة
رسائل البلغاء	محمد كرد علي	مصـــر	١٩١٣
رسائل الجاحـــظ	للجاحـــظ	مصـــر	
رسائل ابن المدبـــر	لابن المـدبر	~~لابن المدبر~~	رسائل ابلغاء
رسالة تنســـر	لتنسر	المجلة الاسيائية	١٨٩٤
السيـــرة	لابـــن هشام	طبع ووستنفلـــد	
الشاهنامه	للفردوسي	طهـران	١٣١٢ (الهجرية الشمية)
شفاء الغليل	للخفاجي	مصـــر	١٣٢٥
شوقي وحافـــظ	لطـــه حسيـــن	مصـــر	
صبح الاعشـــى	للقلقشندى	مصـــر	١٩١٣

الصناعتين	للعسكرى	مصر	الطبعة الثانية
صورة الارض	لابن حوقل	ليدن	٩٣٨ و٩٣٩
ضحى الاسلام	لاحمد امين	مصر	الطبعة الثانية
طبقات الامم	للاندلسي	مصر	
عصر المامون	للرفاعي		
العقد الفريد	لابن عبد ربه	مصر	بولاق
عيون الانباء	لابن قتيبه	مصر	دار الكتب
الفخري	لابن الطقطقى	غوتنجن	١٨٦٠
فتوح البلدان	للبلاذرى		١٨٦٣ — ٨
الفهرست	لابن النديم	ليبزيك	١٨٧١
القاموس المقدس	—	بيروت	
كليلة ودمنة	لابن المقفع	باريس	١٨١٦
الكليني الكتاب بالوتاق	—	طهران	
مجلة الرسالة	—	مصر	
= المقتبس	—	الشام	
= مصر		طهران	
المحاسن والمساوى	للبيهقى	طبع فردريش شوالى	١٣٢٠
المحاسن والاضداد	للجاحظ	ليدن	١٨٩٨
مروج الذهب	للمسعودى	باريس	
مسالك الممالك	للاصطخرى	ليدن	١٩٢٧
المسالك والممالك	لابن خرداذبه	ليدن	١٨٨٩
المعارف	لابن قتيبه	ليبزيك	١٨٦٠
معجم البلدان	لياقوت	مصر	
مفاتيح العلوم	للخوارزمي	مصر	١٣٤٢

المقدمـــة	لابن خلدون	بيروت	١٩٠٠
النثر الفني	لزكي مبارك	مصـــر	
نهاية الارب	ـــلزكي	مصـــر	دار الكتب

٢ - المصادر الخارجية

Brown :.....A Literary History of Persia.

Brown :.....J.R.A.S. 1900.

Christensen :.....Iran sous les Sassanides.

Darmesteter :.....Lettre de Tansar J.A.1894.

Gibb :.....Arabic Literature.

Inostranzev :.....Iranian Influence on the Moslem Literature.

Langhorne :.....Plutarch's lives (translated by.....)

Nicholson :.....Literary History of the arabs

Noeldeke :.....Introduction to Tabari.

Sykes :.....History of Persia.

Thisdall :.....The Sources of the Koran.

توطئـــــــــة

نحاول في هذه الرسالة درس ناحية من نواحي الحضارة الاسلامية والادب العربي التي ظهر فيها اثر للثقافة الايرانية . وهي ناحية النظم الادارية وقوانين السياسة والملك التي تدخل في " نظام الديوان"

لقد كتب في ذلك كل من بحث حالة الاسلام في ماضيه والادب العربي في عهد بني العباس واشاروا بتفصيل او اجمال الى ما كان للنظم الساسانية من اثر في دولة الخلفاء والى ما سجل التاريخ للقائمين بالاعمال الادارية في هذه الدولة المثقفين بالثقافة الايرانية من خدمات باهرة الى اللغة العربية وحضارة الاسلام ، ولكن الباحثين لم يدرسوا حتى الآن هذا الموضوع الا تبعا ولم يهتموا به مع ما فيه من الاهمية الا وسيلة توصلهم الى مواضيع اخرى من التاريخ العربي . وقد سوغ لي ذلك ان اتناول هذه الناحية وادرسها درسا موضوعيا ابيّن فيه المراحل المختلفة التي مرت عليها والآثار البارزة التي بقيت منها في الادب العربي .

يرى القارئ في طيات هذا الكتاب هذه النظم في الدول الايرانية قبل الاسلام ويتابع سيرها الخفي في القرن الاول الاسلامي حتى تظهر ثانية في العصر الذهبي وسوف يلاحظ ما بقي لها من اثر في الادب العربي عامة والكتابة العربية خاصة . وليس عنا في موقف الراغب في اختصار ما فصلناه في الكتب وانما نحاول ان نلقي في هذه المقدمة نظرة عامة على هذه النظم من حيث انها اصبحت اساسا معتمدا عليه كل الدول العظام التي تأسست في الشرق منذ عهد اردشير مؤسس الدول الساسانية الى عصور متأخرة بعد الاسلام ، فنقول :

أسس الساسانيون — وهم الطبقة الرابعة من ملوك ايران — دولتهم على انقاض الدولة الاشغانية وهي اول دولة ايرانية حكمت هذه البلاد بعد غلبة الاسكندر عليها . وكانت الدولة الاشغانية مع صبغتها اليونانية تتابع قسما من النظم التي كانت متبعة

في الدولة الهخامنشيّة التي على ما يظهر من شهـــادة معاصريها من اليونانيين وغيرهم كانت ذات نظم ادارية راقية مكّنتها من الحكم على امبراطورية عظيمة ممتدّة من مصر الى الهند طوال قرون عديدة . الا ان الاشغانيين لم تبلغوا في سنّ قوانين الملك ورسم الحكم مبلغ الساسانيين ولم تعرف دولتهم بمثل ما عرفت به دولة الاكاسرة من حسن السياسة وجودة التدبير .

امتازت الدولة الساسانية عما سبقها من الدول بميزتين رئيسيّتين هما من اهم اركان الملك والسياسة في كل دولة وفي كل عصر وهما تمركز الحكم والقوّة والقدرة في مركز واحد اوّلا وتوحيد القوانين السياسية والدينية ثانياً .

فقد بذل الساسانيون كل جهودهم في سبيل تحقيق هذين الهدفين فقاموا بقمع اصول الاقطاعية التي كانت تسود البلاد في العهد الاشغاني من ناحية وعنوا عناية خاصة باحياء الديانة الزردشتية وحمايتها من ناحية اخرى وقد بداء بذلك اردشير موسس دولتهم ووفّق الى ذلك فعلا فاخضع ملوك الطوائف وامر بجمع ما تفرق من كتب افستا واحياء ما اتلف من المآثر الزردشتية واوجد بذلك دينا رسميا يحمي دولته وتحميه ومن الحكم المأثورة عنه في الاسلام قوله من وصية له لابنه " يا بني ان الدين والملك اخوان لا غنى لواحد منهما من صاحبه فالدين اسّ الملك والملك حارسه وما لم يكن له اسّ فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع " (١) فان كانت الميزة الاولى اى تمركز القدرة تقليدا من الدولة الهخامنشية ومن داريوش الكبير خصوصا فالثانية — كما يرى ذلك الاستاذ كريستن من Christensen مما زيدت على النظم الايرانية في العصر الساساني (٢) ولا يخفى ان دولة هذه صفتها

---

(١) ~~اخبار الطوال ٤٧~~ مروج الذهب : ٢ : ١٦٢

و ٢) ~~المحاسن والمساوئ ٥٣~~ Iran sous les Sassanides ص ٩٢

يجب ان تكون بجانب عظيم من التقدم في حقل السياسة والتدبير حتى يتاح لها الحكم على بلاد واسعة الاطراف تمتد من حدود الهند الى سواحل بحر الروم احيانا ؟

والحقيقة ان الملوك الساسانيين اخذوا منذ بدء دولتهم يوضع قوانين جديدة للملك والمملكة وايجاد رسوم متناسبة للتدبير والسياسة من تنظيم تقسيم الطبقات وتعيين وظائف كل طبقة وايجاد طبقة خاصة لادارة امور المملكة وماشاكل من الاعمال الاصلاحية ويرجع اكثر الفضل في ذلك الى اثنين من ملوك هذه الاسرة لهما اليد الطولى فيما وصلت اليه دولة الاكاسرة من التقدم والرقي وهما اردشير بابكان مؤسس هذه الدولة وكسرى انو شروان مجدد آثارها ومحي رسومها . فقد اشتهر اردشير في التواريخ الايرانية والعربية لا بحروبه فحسب بل في جهوده ايضا في جمع افستا واحياء الديانة الزردشتية فقط بل بسن الانظمة وتشريع القوانين ووضع المراتب التي اصبحت اساس حكم الساسانيين فيما بعد قال الدينوري " وكان اردشير هو الذي اكمل آئين الملوك ورتب المراتب واحكم السير ولم يفقد صغير الامر وكبيره حتى وضع كل شيء من ذلك على موضعه " (١)

وقد عرف بشدة تيقظه في امر الملك وسياسة البلاد حتى قيل انه " كان يصبح فيعلم كل شيء جرى في دار مملكته خيرا لم شر " ويمسي فيعلم كل شيء اصبحوا عليه " بحيث كان يقال يأتيه ملك من السماء فيخبره (٢) وعندما كان كسرى انو شروان يعتلي سرير الاكاسرة ليستلم الحكم كانت الدولة الساسانية بل البلاد الايرانية بأسرها تمر موقفا حرجا فقد كانت الديانة المزدكية منتشرة في البلاد انتشارا واسعا بعد ان

---

(١) الأخبار الطوال ٤٧

(٢) المحاسن والمساوى ١٥٣

اعتنقها الملك قباد الذي ملك قبل انو شروان وقد اثار ذلك سخط الروحانيين والطبقات العاليه . فكان عليه ان يحكم بلدا مضطربة الاحوال ، وامة متفرقة الاهواء على رأس دولة متضعضعة الاركان والبنيان . ولكن ابت شخصيته الفذة الا ان تخضع المشاكل وتهدم العناصر الهدامة للدولة وان تقوم بتجديد تنظيم البلاد وتقوية قوانين الملك واصلاح ما افسده المزدكيه واعادة الهدوء والاستقرار مما ورد شرحها بالتفصيل في التواريخ وكان من جملة اعماله الاصلاحية على ما ذكره ابن بطريق انه " اخرج كتب اردشير التي فيها سيرته التي سار بها فحمل الناس على تلك السيرة وكتب بذلك الى الآفاق "(١) ولم تكن اعماله منحصرة باحياء سنن اردشير وتجديد سيره فقط بل قام باعمال اخرى في سبيل تنظيم امور الدولة لم تقل اهمية عما فعله اردشير . من ذلك امره بمسح الاراضي ووضع الخراج على اسس متينة دامت بعده بقرون وكذلك في سائر النواحي الادارية والعسكرية مما ادى الى تجديد قوة الدولة وتجديد حيويتها .

وكان الملوك الساسانيون شديدي الحرص في اجراء النظم والقوانين المتبعة وقد ورد في ذلك حكايات كثيرة في الكتب العربية وغير العربية وهي وان يظهر بعضها بمظهر المبالغة الا انه يستنتج من مجموعها مقدار العناية التي كانوا يبذلونها لحفظ سنن السلف ومراعاة رسوم الملك والسياسة نقل من ذلك مثلا ما ذكره الدينوري في اخبار الطوال قال + " وكان كسرى ولّى رجلا من الكتّاب بيتها معروفا بالعقل والكفاية ، يقال له بابك بن النهروان ديوان الجند فقال لكسرى ايها الملك انك قد قلدتني امرا من صلاحه ان تحتمل لي بعض الغلظة في الامور عرض الجنود في كل " اربعة اشهر

---

(١) تاريخ ابن بطريق ، النسخة المخطوطة للمكتبة الشرقية ببيروت ص ١٣٠

واخذ كل طبقة بكمال آلتها ومحاسبة المؤدبين على ما يأخذون على تأديب الرجال بالفروسية والرمي والنظر في مبالغتهم في ذلك وتقصيرهم فان ذلك ذريعة الى اجراء السياسة مجاريها فقال كسرى ما المجاب بما قال بأحظى من المجيب لاشتراكهما في فضله وانفراد المجيب بعد بالرأحة فحقق مقالتك وامر فبنيت له في موضع العرض مصطبة وبسط له عليها الفرش الفاخرة ثم جلس ونادى مناديه لا يبقين احد من المقاتلة الاحضر للعرض فاجتمعوا ولم ير كسرى فيهم فأمرهم فانصرفوا وفعل ذلك في اليوم الثاني ولم ير كسرى فانصرفوا فنادى في اليوم الثالث ايها الناس لا يتخلفن من المقاتلة احد ولا من اكرم بالتاج والسوير فانه عرض لا رخصة فيه ولا محاباة وبلغ كسرى ذلك فتسلح سلاحه ثم ركب فاعترض على بابه وكان الذي يؤخذ به الفارس تجفافا ودرعا وجوشنا وبيضة ومغفرا وساعدين وساقين ورمحا وترسا وجزرا يلزمه بمنطقته وطبرزينا بعمودا وجعبة فيها قوسان بوترهما وثلثين نشابة ووترين ملفوفين بعلفهما الفارس في مغفرة ظهريا فاعترض كسرى على بابه بسلاح تام خلا الوترين اللذين يستظهر بهما فلم يجز بابه على اسمه فذكر كسرى الوترين فعلقهما في مغفره واعترض على بابه فاجاز على اسمه ... " (١)

ومن هذا القبيل روايات كثيرة نجدها في كتب التاريخ والادب . " قال الجاحظ بعد ما ذكر عقوبة اردشير نفسه لما قد امر به في حالة السكر ما لم يكن يلائم ونظام طبقات المغنين " وما ذاك الا حثا على لزوم سننهم وحفظ نواميسهم واخذ العامة بالسياسة التامة والامر اللازم " (٢)

هذا وغير ذلك من العوامل المؤثرة في النظم الساسانية جعلت تلك النظم

---

(١) الطبري الجملة الاولى ٩٦٣ . اخبار الطوال ٧٤ — ٧٥ وقد روى الكوديزي رواية شبيهة بذلك عن عمرو ابن الليث من الملوك الصفارية (راجع زين الاخبار ١٠)

(٢) التاج ٢٧

ذات اهمية ادارية كبرى وقد عرفت قيمتها فيما بعد عندما زالت دولة الاكاسرة وبقيت ماثرها الادارية والسياسية لتساعد على انشاء دول عظيمة اخرى تحكم الشرق وتدافع عن حضارتها في العصور المتأخرة . تلك الماثر التي اثارت اعجاب المؤلفين من العرب والمسلمين فاخذوا يسردونها في كتبهم ذاكرين لما كان لهم من رسوم حسنة وسير مرضية . والحقيقة ان الدولة الساسانية اشتهرت بين المؤلفين بحسن السياسة والتدبير وقد اعترف لها بذلك كل من الف في الادب والتاريخ شيئا حتى كانوا يعدّون ذلك ميزة من ميزاتها الخاصة فعندما يعدد الجاحظ مزايا كلّ امة من الامم يقول "وميزة آل ساسان في الملك والسياسة (١) وقال ابن صاعد الاندلسي " واعظم فضائل ملوك الفرس التي اشتهروا بها حسن السياسة وجودة التدبير . لا سيّما ملوك بني ساسان منهم ، فهم ملوك لم يكن في سائر الاعصار مثلهم رجاحة احلام وكرم سيرة واعتدال مملكة وبعد صيت " (٢)

وليس نظام الملك وقوانين السياسة كلّها من عمل جيل واحد او دولة واحدة بل هي ككل العلوم والفنون نتيجة تجارب اجيال مختلفة ودول متتابعة انتقلت من السلف الى الخلف وتقدمت في كل الانتقال خطوة نحو الرقي والكمال . ولذلك عندما بدأ الاسلام ينتشر واخذت الخلافة تتبدل بالملك واصبحت الدولة الاسلامية تحكم بلادا واسعة الاطراف كان من الطبيعي ان تجري هذه الدولة مجرى الدول السالفة في اتخاذ نظم لادارة تلك الامبراطورية العظيمة وهذا ما حصل فعلا - واذ كانت الدولة الساسانية هي التي ورثت الحكم في الشرق منذ قرون عديدة اتصلت بالاسلام فلا شك ان النظم الساسانية هي التي ستتبع في دولة فتية انبعثت في امة لم تكن تجاربها الشخصية في امر الملك والسياسة كافية لادارة دولة عظيمة كدولة الامويين والعباسيين خصوصا وهذه الدولة سوف تحكم على الاكثر

---

(١) راجع في ذلك رسائل الجاحظ ٤٧ وما بعد

(٢) طبقات الامم ٢٤

نفس البلاد التي كانت خاضعة لتلك النظم فيما يزيد على اربعة قرون ، فنحن لا نتعجب مع سليمان بن عبد الملك حين قال " العجب من هذه الاعاجم ملكوا الف سنة فلم يحتاجوا الينا فلما ملكنا لم نستغن عنهم وانما نرى ذلك امرا طبيعيا ولقد اصاب يحيى بن خالد البرمكي في قوله عندما ناظر فارسيا عربيا بين يديه وقال له " ما احتجنا اليكم قط في عمل ولا تسمية ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في اعمالكم ولا لغتكم " فقال يحيى بن خالد للعربي قل له " اصبر لنا نملك كما ملكتم الف سنة ، بعد الف سنة كانت قبلها لا نحتاج اليكم ولا الى شيء كان لكم " (١) . فليست المدنية الا نتيجة جهود امم مختلفة اشترك فيها كل بحسبه ولكل امة رسالة كتب عليها ان تؤديها نحو العالم والبشرية .

وقد تأسست في الشرق دول اخرى غير الاموية والعباسية كان لها صيت عظيم وكانت لها قدرة ونفوذ كدولة البويهيه والسلوجقية وغيرها من الدول الاسلامية وسادت فيها ، لادارة امورها وتدبير سياستها نفس النظم المتبعة في دولة الخلفاء وملكة بني ساسان بحيث لو تأملنا الآثار الباقية عنها لا نرى كبير فرق بينها وبين ما سبقها ، فما يرسمه خواجه نظام الملك وزير آل سلجوق في كتابه " سياست نامه " من قواعد الملك ورسوم السياسة لا يختلف عما نعهده في الآثار العربية عن الملوك الاقدمين وكذلك ما كتبه قابوس احد امراء طبرستان من آل زيار لابنه في انواع الادب والسياسة في كتابه " قابوس نامه " لا يبعد عن كتب من هذا النوع التي اشتهرت في الادب الساساني وبعده في الادب العربي من وصايا الملوك والامراء الى ابنائهم وعهدهم اياهم . وقد بلغ هذا التقارب في بعض المواضيع والاتحاد في البعض الآخر بدرجة يعد المحققين هذين الكتابين وامثالهما في الادب الفارسي

---

(١) ادب الكاتب للصولي ص ١٩٣

كصادر
خاصة لدرس الامبراطورية الساسانية درسا داخليا (١) وهكذا انتقلت هذه النظم من دولة الى دولة ومرت عليها ادوار مختلفة اثرت فيها وتأثرت بها . قال ابن خلدون في بيان ان اهل الدول ابدا يقلدون في طور الحضارة واحوالها للدولة السالفة قبلهم " وهلم جرا " تنتقل الحضارة من الدول السالفة الى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني امية وبني العباس ... وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى الترك ثم الى السلجوقية " (٢) وقد قلدت الدولة الفاطمية بمصر في المراتب والوظائف الدولة العباسية واتبعت نفس النظم المتخذة في هذه الدولة وتسربت منها الى غيرها من الدول المصرية ويظهر ذلك جليا بمطالعة صبح الاعشى وما ورد فيه عن المراتب المتبعة في هذه الدول . قال القلقشندي في بيان ان الالقاب الاعجمية المحدثة في الدولة المصرية اكثرها فارسية ما يلي " والسبب في استعمال الفارسي منها وان كانت الفرس لم تلها في الاسلام ان الخلافة كانت ببغداد وغالب كلام اهلها الفارسية والوظائف منقولة عنها الى هذه المملكة ، اما مضاهاة كما في الدولة الفاطمية على قلة كما في "الاسفهسالار" واما تبعا كما في الدولة الايوبية وما بعدها (٣)

وقد قارن استمرار النظم الايرانية في الاسلام بعامل آخر كان له اثر غير قليل في بقاء هذه الآثار واستمرارها وذلك ما نشاهده في الدول الشرقية الاسلامية من ان القائمين باعمال الادارة وتدبير الملك وحاملي لواء الوزارة والكتابة فيها من الايرانيين غالبا بحيث اصطبغت هذه الناحية من حياة الدول الاسلامية بصبغة خاصة ولا يخفى ما لكل من هذين العاملين اثر في بقاء الآخر وتمكنه من الدولة . فالبرامكة وامثالهم من وزراء بني العباس يديرون الدولة العباسية بطريقة كان يدير بها من قبلهم بزرجمهر او غيره من وزراء الاكاسرة امبراطوريتهم ، وهي نفس الطريقة التي ساس بها ابن العميد ملك بني بويه واتبعها خواجه نظام الملك في تدبير مملكة آل . سلجوق . وقد ظلت هذه الظاهرة جلية حتى في دولة المغول وبني تيمور.

---

(١) Grunebaum. Iranian Influence on Moslem Literature ص ٦٠

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٤ (٣) صبح الاعشى مجلد ٤ ص ٤٥٣

الفصـــــــل الاول

نظام الديوان في ايران قبل الاسلام

مقدمة تاريخية ، عدد الدواوين في الدولة الساسانية ، الكتاب العرب في ديوان الاكاسرة ، الكتّاب كطبقة اجتماعية . مكانة الكتّاب من الدولة ، وثقافتهم ، كيفية العمل في الدواوين ، اسلوب الانشاء ، البيان والبـــلاغـــة .

الديوان لفظة بهلوية بمعنى الادارة اطلقت في الدولة الساسانية على الدوائر المختصة باعمال ادارة الملك وتدبير شؤون المملكة كدائرة الخراج والجيش والبريد وما الى ذلك (١) وقد استعاروا الكلمة في الاسلام واستعملوها لدفاتر الايرادات والمصروفات او لكتب كانت تسجل فيها اسماء الجيش ثم توسعوا في معناها شيئا فشيئا كلما تقدم نظام الديوان في دولة الخلفاء حتى تغيرت معناها مما كان يستعمل فيه في العصر الساساني واستعملت في مجموع الدوائر والادارات التي كانت تقوم بسياسة البلاد الاسلامية (٢)

واستحدام الديوان في الدول الايرانية قديم يرجع عهده الى قبل الدولة الساسانية . فمما وصل الينا من الآثار التاريخية ويظهر من اقوال المؤرخين القدماء وبعض النصوص التاريخية القديمة كانت الدولة الهخامنشية (٥٥٩ — ٣٣٠ ق م) ذات انظمة ادارية راقية . فمن ملوك هذه الاسرة المشهور باعماله الاصلاحية « داريوش الاول » ثالث ملوك الهخامنشيين (٥٢١ — ٤٨٦ ق . م) الذي لقبوه بالكبير لما كان له من آثار باهرة في سبيل تنظيم البلاد فهو اول من ضرب النقود من ملوك ايران ومما نسب اليه

---

(١) Christensen . Iran sous les Sassanides : ٣٨٨

(٢) راجع ذلك بالتفصيل في مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٣ وما بعد في التاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان المجلد الاول

من الاعمال الادارية تجديد نظام عمال الدولة وانشاء طرق عامة لوصل انحاء امبراطوريته بعضها ببعض وايجاد البريد وما الى ذلك مما يجد القارئ شرحها في التواريخ (١) ونعثر في بعض المصادر على نصوص تدل على ان بعض النظم الادارية في ذلك العصر لم يختلف عما نراه في العصر الساساني ، فكان لهم ديوان او محل مخصوص لضبط الكتب الرسمية والاحكام الصادرة من الملك او الواردة اليه كما انه كان في بلاطهم الساسانيين تواريخ رسمية تسجل فيها الحوادث الهامة التي كانت تحدث في المملكة ورد في التوراة كتاب بعثه رؤساء اليهود الى داريوش المقدم الذكر فيما يتعلق ببناء بيت المقدس جاء فيه " فالآن ان حسن عند الملك فليبحث في بيت خزائن الملك الذي هناك في بابل هل ابرز امر من كورش الملك ببناء بيت الله هذا في اورشليم " وامر داريوش فبحث في بيت الاسفار حيث كانت الخزائن في بابل فوجد في احمتا القصر الذي في بلاد ماداى درج مكتوب فيه هكذا .. الخ " (٢) وفي رسالة اخرى بعثت الى ارتخشستا (ار دشير) احد هؤلاء الملوك بهذا الشأن " ليبحث في سفر ايامك فتطلع في سفر التواريخ وتعلم ان هذه المدينة مدينة متمردة " وجاء في الجواب " وقد امرت فبحث فوجد ان هذه المدينة في قديم الدهر قامت على الملوك " (٣) ونقرأ في كتاب پلوتوخ المؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الاول للميلاد (٤٥ او ٤٦ — ١٢٠ م) في ترجمة تميستوكلس (Themistocles) عندما يشرح المعركة البحرية التي حدثت بين الاساطيل الايرانية واليونانية في سلاميس (Salamis) في عهد خشايارشا (٤٨٦ — ٤٦٥ ق . م) ما يلي " وكان خشايارشا (Xerxes) جالسا على سرير من الذهب وقد احاط به عدد كثير من الكتاب وكانت مهمتهم

---

(١) Sykes. History of Persia. ج ١ : ١٦١ - ١٦٥

(٢) الكتاب المقدس . ١ + ٧٤٤ .

(٣) // // ١ + ٧٧٢ (سفر عزرا)

ضبط تفاصيل المعركة (١) ومن هذا القبيل من الروايات المشيرة الى الكتّاب في ذلك العصر ما ورد في سفراستير من التوراة في حكاية احشورش (خشايارشا) وما كان لا نطيل بذكرها (٢)

ونجد في التواريخ العربية روايات تسرّبت اليها من التواريخ الساسانية تشير الى بعض النظم الادارية التي وضعت في الدولة الايرانية قبل غزو الاسكندر للشرق من ذلك ما ورد في تاريخ حمزة الاصفهاني في لهراسب الذي يعدّه من الملوك الكيانية قال فيه «وهو اول من وضع ديوان الجند وجعل للمرازبة سررا وحلاهم بالاسورة واتخذ السرادقات» (٣) وقال في دارا ابن بهمن «وهو اول ملك وضع سكك البريد ورسم فيها اقامة دواب سحذقة الاذناب فسميّت بريد ذنب ثم عربوا الكلمة وحذفوا منها النصف الاخير فقالوا بريد.» (٤) وعلى ما يظهر من الطبري كان عمل دارا هذا اعادة تنظيم البريد وترتيبه لايجاده مما يدل على ان البريد كان يوجد قبله (٥)

هذه وغيره من الروايات التاريخية تدلنا على انه كان يوجد في ذلك العصر دواوين خاصة لاعمال الدولة وكتاب موظفون لتسجيل الحوادث وضبط الامور ويظهر انه كان لهؤلاء الملوك عناية كبيرة بهذه الناحية من نواحي الملك بحيث بلغ بعض الفروع منها من التقدم والرقي بدرجة لم يختلف عما نراه في العصر العباسي كديوان البريد مثلا حسب التفاصيل الواردة عنه في

---

(١) Plutarch's Lives. I p 332 ترجمة Langhorne بالانكليزية

(٢) راجع الكتاب المقدس ١ + ٨٦٠

(٣) تاريخ ملوك الارض + ٣١

(٤) // // // + ٣٤

(٥) الطبري الجملة الاولى + ٦٩٢

التواريخ اليونانية (١) والتواريخ الرسمية بالنسبة الى ما نجده في العصر الساساني (٢).

ويظهر ان الكتب الصادرة من ديوان الملوك الهخامنشيين لم تكن بلغة واحدة بل كانت تكتب في الاغلب بلغات متعددة .(٣) ويؤيد ذلك ان القطع الاثرية التي بقيت من ذلك العصر اكثرها مكتوبة باكثر من لغة من ذلك ما وجد في الابحاث الاخيرة في اطلال تخت جمشيد بفارس وهي عبارة عن اربعة الواح من الذهب والفضة موضوعة في صندوقين من الحجر كانت مدفونة في اصلاع القصر مما اكتشفه داريوش المقدم ذكره وهي بثلاث لغات ، الفارسية القديمة والبابلية والعيلامية .(٤) واما خط الكتب والرسائل الديوانية فعلى ما يعتقده الباحثون كانوا يستخدمون خطا آخر غير الخط المسماري الذي كان يكتب به النقوش الاثرية ولم يكن يستخدم في الديوان لصعوبته التي جعلته غير صالح لذلك في السجلات (٥) وبما ان بعض النصوص التاريخية يشير الى وجود كتاب ارامين في بلاط الهخامنشيين يمكننا ان نحتمل ان الخط المستعمل في الديوان كان الخط الارامي وفي التوراة ايضا ما يؤيد ذلك فقد ورد في رسالة بعثت الى " ارد شير " الملك نقلنا قسما منها فيما مرّ هنا ما يلي : " وكان خط الرسالة بالآرامية وترجمت

---

(١) Christensen : ١٤٣

(٢) " : ٣٥

(٣) الكتاب المقدس ١ + ٨٦١

(٤) راجع لتفصيل اكثر في هذه الالواح مجلة مهر " السنة الاولى + ٥٦٨

(٥) كلجيني ازكتاب يلوتارخ ذيل ص ٢٠

بالآرامية " (١)

ولا نعلم فيما اذا وصل من دواوين عصر الهخامنشيين الى الدولة الاشغانية (٢٥٦ ق م — ٢٢٤م) شيء لم لا فعلًا ورد ذكره في التواريخ من اعمال الاسكندر بعد غزوه الشرق واستيلائه على خزائن الملوك بفارس احراق الكتب التي وجدها في هذه البلاد وكذلك احراق دواوين " دارا " آخر ملك من الاسرة الهخامنشية (٢) ولم يصل الينا من الآثار الاشغانية ما يرشدنا لمعرفة النظم الادارية في هذه الدولة الا انه مما لا شك فيه كانت توجد في التواريخ الساسانية معلومات كثيرة عنها وقد تسرب بعضها الى التواريخ العربية يحدثنا الدينوري عن " دارا " المقدم الذكر ويقول عنه " كانت نسخة كتبه الى عماله من دار ابن دار المضيء لاهل مملكته كالشمس الى فلان (٣) مما يظهر انه اخذ هذه الرواية من مصدر ساساني قد كانت توجد فيه معلومات دقيقة عن هذه الناحية . اما عن نظم الديوان في عصر الاشغانيين (البرثيين) فلا نعلم شيئا كثيرا نظرا لقلة ما وصل الينا من الآثار من هذه الفترة التاريخية التي تقع بين الاسكندر وبين اردشير بابكان مؤسس الدولة الساسانية ، روى الطبري انه عندما غلب اردشير على اردوان آخر الملوك الاشغانيين قتل سابورين اردشير الذي كان يحارب بجانب ابيه " دار بنداذ " كاتب اردوان (٤) ويظهر ان ذلك كان جزاء للكتاب العنيف الذي كان قد كتبه هذا الكاتب من اردوان الى اردشير (٥)

---

(١) كتاب المقدس ١ + ٧٧١

(٢) الطبري الجملة الاولى + ٧٠١

(٣) الاخبار الطوال + ٣١

(٤) الطبري الجملة الاولى + ٨١٩

(٥) الطبري الجملة الاولى + ٨١٦ راجع ايضا Christensen 129 وقد ذكر الكاتب باسم (داذ بنداه)

يستفاد من المصادر التاريخية والروايات المبعثرة التي روت عن العصر الساساني ان نظام الديوان كان قد تقدم في ذلك العصر تقدما يناسب مع ضخامة ملك الاكاسرة وبعد صيتهم في ادارة الدولة وسياسة البلاد . واكثر ما ذكره المؤرخون العرب من النظم الادارية عن هذه الدولة يرجع الى عهد كسرى انو شروان وما بعد (١) وبما ان هذه النظم هي التي تسربت الى الدول العربية والاسلامية سوف نذكرها في هذا الفصل بتفصيل اكثر .

---

(١) Christensen ص ٣٨٨

عدد الدواوين في الدولة الساسانية

يحدثنا البلاذري في رواية رواها عن ابن المقفع انه " ان لملك من ملوك فارس خاتم للسر وخاتم للتوسل وخاتم للتخليد يختم به السجلات والاقطاعات وما اشبه ذلك من كتب التشريف وخاتم للخراج " (١)

قال الاستاذ (كريستن سن) Christensen بعد ما ذكر هذه الرواية : اننا نستطيع ان نستنتج منها انه يمكن ان يوجد لكل خاتم من هذه الخواتم ديوان على الاقل على انه يرى مع ذلك ان هذه اللائحة لا تمثل جميع الدواوين الموجودة في ذلك العصر فان الدواوين لم تكن منحصرة بما ورد فيها بل من المعقول ان يكون علاوة على ما ذكر عدة دواوين اخرى للجند والبريد ولضرب النقود او الاوزان كما انه من المحتمل ان يكون لادارة الاملاك الخاصة بالملك ديوان مخصوص وان يكون ديوان الخراج الذي هو من اهم الدواوين متفرعا الى شعب وفروع حسب تشعب امورها كما سنرى ذلك في عصر الخلفاء الامويين والعباسيين (٢)

---

(١) فتوح البلدان ٤٦٤

(٢) Christensen : ٣٨٨ . لا تدل رواية البلاذري الا على اربعة خواتم كما يظهر منه الا ان الاستاذ كريستن سن ذكر في ترجمتها خمسة خواتم فالخاتم الثالث الذي ذكره المؤلف اي خاتم الجرائم لا يوجد في رواية البلاذري التي نقلناها ولا نعرف فيما اذا كانت الرواية في المصدر الذي اعتمد عليه الاستاذ تحتوي على ما ينقصه هذه الرواية او ان الرواية محرفة في النسخة التي نحن اعتمدنا عليها . وفيما يلي نص عبارته:

« Nous savons seulement que le roi avait des sceaux différents pour la Chancellerie secrète, pour les lettres (le secrétariat), pour la justice Criminelle, pour la distribution des marques d'honneurs et des charges, et pour les finances »

وليست الروايات الواردة في المصادر الاسلامية عن الدواوين الموجودة في العصر الساساني منحصرة بما ذكره البلاذري فهناك نصوص اخرى مبعثرة هنا وهناك يستدل بها على وجود دواوين اخرى غير المذكورة في هذه اللائحة وتؤيد نقليا ما انبته الاستاذ بحكم العقل . فمنها ما ذكره المسعودي في مروج الذهب عن خواتيم كسرى انو شروان فانه وان لم يذكر في هذه الرواية الا اربعة خواتيم وهي خاتم للخراج وخاتم للضياع وخاتم للعمونة وخاتم للبريد (١) الا ان الثلاثة الاخيرة منها غير ما ورد في رواية البلاذري

---

(١) مروج الذهب ٢ ، ٢٠٤

مما ينبت دواوين اخرى غير ما تثبته تلك الرواية . وقد مر معنا فيما نقلناه عن الدينوري في مقدمة هذا الكتاب خبر ديوان الجند عندما ولاها انو شروان رجلا من افاضل الكتاب باسم " بابك بن النهروان " والنظام الحاسم الذي كان يسودها . ويحدثنا صاحب (تاريخ كزيده) ان انو شروان اول من وضع ديوان العرايض (١) وذكر المسعودي في مروج الذهب تسعة خواتيم لكسرى ابرويز وقال انها كانت تدور في امر الملك وعد من هذه الخواتيم خاتم تختم به الرسائل والسجلات وخاتم تختم به التذكرات وخاتم يختم به اجوبة البريد وخاتم يختم به البراءات والكتب بالتجاوز عن العصاة والمذنبين وخاتم يختم به خزائن الجواهر وبيت المال الخاصة وخزانة الكسوة وخزانة الحلى وخاتم يختم به كتب الملوك الى الآفاق وخاتم يختم به الاطعمة والادوية والطيب وخاتم يختم به اعناق من يؤمر بقتله وما ينفذ من الكتب في الدماء . وقد ذكر في هذه اللائحة خاتما اخر لم يكن له دخل في ادارة امر الملك وهو خاتم من حديد كان يلبسه عند دخول الحمام والابزن (٢) ويظهر من الاوصاف الدقيقة التي يصف بها المسعودي كل واحد من هذه الخواتم كاللون والجنس والصور او الكلمات المنقوشة عليها وغير ذلك من التفاصيل انه اخذ الرواية عن مصدر فارسي له علاقة بالمصادر الرسمية الساسانية وبما كان يوجد في خزائن الاكاسرة . وهذه الرواية وان لا تساعدنا على تمييز الدواوين الرئيسية من غير الرئيسية الا انها تدلنا على وجود شعب وفروع عديدة للدواوين الساسانية . وقد يحتمل

---

(١) تاريخ كزيده ١١٥

(٢) مروج الذهب ٢ + ٢٢٨ — ٢٣٠

وقد يحتمل ان يكون كل من هذه الفروع يسمى ديوانا كما نرى ذلك احيانا في الدواوين الاسلامية . وان يكون من هذه الفروع ايضا الديوان الذي يذكره الجاحظ باسم ديوان النيروز فقد قال الجاحظ عندما تعدد الهدايا التي كانت ملوك الامم والطبقات المختلفة من الشعب تهديها الى الاكاسرة في عهد النيروز " والكاتب واقف يكتب كل مهد وجائزة كل من يخبره الملك على هديته ليودع ذلك ديوان النيروز " (١)

ونقرأ في بعض المصادر الساسانية ان عائلات العظماء والبيوتات كانت تسجل في الدواوين (٢) وذلك رعاية لنظام الطبقات وحفظا لهذه الطبقة من الانحطاط والزوال ويؤيد ذلك ما ورد في التواريخ ضمن الاعمال الاصلاحية التي قام بها كسرى انو شروان بعد رفع غائلة المزدكية من انه امر بعد عائلات الفتن ذوي الاحساب التي مات قيمها فكتبوا له ذلك فامر باصلاح ما افسد من امورها (٣) مما يدل على وجود دواوين مرتبة لذلك . ومن الدواوين التي نجد اسمها في المصادر العربية ديوان بيوت النيران فكثيرا ما يحدثنا جغرافيو العرب من بيوت النيران بفارس وانه لا يمكن عدها لكثرتها الا من الديوان (٤) ويظهر من ذلك انه كان يوجد في الديوان فرع خاص

---

(١) المحاسن والاضداد + ٣٦٩

(٢) رسالة تنسر ، طبع دار مستتر : ٣٢٣ و ٥٢٧

(٣) الطبري الجملة الاولى + ٨٩٧

(٤) صورة الارض لابن حوقل ٢ + ٢٧٣

بضبط بيوت النيران وما يتعلق بها من الاموال او ان هذا الديوان كان يعدّ من الدواوين المستقلة وهذا ما يؤيده وجود كتّاب خاصة لهذا الديوان كما نراه فيما بعد . يستفاد من الخوارزمي ان اصناف الكتّاب كانت سبعة في الدولة الساسانية وهي كما يلي +

١ — دار ديبير " Daar-Dibher اى كاتب الاحكام " القضائية "
٢ — شهر امار ديبير Shahr-amar-dib اى كاتب خراج المملكة وايرادات الدولة
٣ — كذك آمار ديبير " Kadhak-amar اى كاتب ايرادات الملك الخاصة
٤ — كنز آمار ديبير " Ganz-amar اى كاتب الخزائن
٥ — آخور آمار ديبير " akhor-amar اى كاتب الاصطبلات
٦ — آتشن آمار ديبير " atash-amar اى كاتب حسابات بيوت النيران
٧ — روانكان آمار ديبير " Ravanghan-amar اى كاتب الاوقاف والصدقات

او صاحب صدقات المملكة كما سماه الدينوري نقرأ في الاخبار الطوال في ذكر من اجمع من عظماء الدولة بعد وفاة يزد جرد لابعاد بهرام كور من الحكم اسامي ثلثة من الكتّاب وهم جودرز كاتب الجند وجشنسا ذريشيس كاتب الخراج وفناخسرو صاحب صدقات المملكة (٢) ومن اصناف الكتاب التي يرد ذكرها بكثرة في ديوان الاكاسرة صاحب الزمام وظيفته تولية خواتيم الملك (٣) وصاحب الاخبار والسير ومهمته حفظ التواريخ السنوية الرسمية التي كانوا يسجلون فيها حوادث كل سنة يوميا (٤)

---

(١) راجع مفاتيح العلوم للخوارزمي طبع مصر ص ٥ و Christensen ص ١٢٩
(٢) اخبار الطوال + ٥٧
(٣) فتوح البلدان + ٤٦٤
(٤) Christensen + ١٣٠

الكتّاب العرب في ديوان الاكاسرة

وكان في ديوان الساسانيين بجانب ما ذكرناه من الكتّاب كاتب آخر لما كان يكتب به الى ارض العرب وكان يتصدّى خاصة لامور الحيرة من ترجمة الاحكام والكتب الصادرة من الديوان الى عرب الحيرة والمناذرة والرسائل الواردة منهم اليها او غير ذلك مما له علاقة بالديوان . واول من ورد اسمه من العرب ككاتب في ديوان الاكاسرة لقيط بن معبد او لقيط بن يعمر الايادي صاحب القصيدة الطويلة التي ينذر فيها قومه غزو كسرى اياهم روى انه كان كاتبا في ديوان كسرى فلما رآه مجمعا على غزو اياد كتب اليهم بهذه القصيدة (١) ويذكر المسعودي هذه الواقعة في ايام سابور (٣١٠ — ٣٧٩) حينما غلبت العرب من ولد اياد بن نزار على سواد العراق وملكها يومئذ الحارث بن الاغر ويظهر مما ذكره ان لقيط كان في جيش سابور (٢) على ان اشهر من عرف بهذا المنصب من عرب الحيرة هم من اسرة مسيحية ينتمي اصلها الى حماد بن زيد كاتب النعمان النصري وقد اشتهر من هذه الاسرة خصوصا زياد بن حماد وعدي بن زيد وزيد بن عدي الذين خدموا الديوان منذ اعوام طويلة وقد كان هؤلاء الكتّاب مع معرفتهم للعربية مثقفين ثقافة ايرانية عالية مكنتهم من اشغال مناصب هامة في الديوان ومنزلة رفيعة عند ملوك الحيرة وكان النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بابي قابوس الذي كان من اشهر ملوك الحيرة

---

(١) راجع كتاب الاشتقاق لابن دريد طبع ووستنفلد مجلة المقتبس سنة ٣ ص ٧٧٤ — ٧٧٨

(٢) مروج الذهب مجلد ٢ + ١٧٦ — ١٧٧

(٥٨٠ — ٦٠٢ او ٥٨٥ — ٦٠٧) قد تزوج في حجر عدي بن زيد (١) وقد كان لذلك اثر في تسمية ابنه قابوس باسم فارسي .

كان حماد بن زيد صديقا لاحد عظماء الدولة الساسانية يقال له « فروخ ماهان » من الدهاقين والمرازبة . وكان لفروخ ماهان اثر كبير في تنقيف اولاد حماد بن زيد وترفيعهم في الدولة . فذكر المؤرخون ان المرزبان اخذ زياد بن حماد عنده فعلمه الفارسية وكان قد حذق الكتابة والعربية من قبل فادخله في ديوان البريد وظل يتولى ذلك زمانا حتى هلك النعمان النصري ملك الحيرة فسعى المرزبان عند كسرى حتى بعثه الى الحيرة ملكا وبقي هناك حتى ملك كسرى على الحيرة منذر بن ماء السماء . وكان عدي بن زياد ابنه عند المرزبان فارسله المرزبان مع ابنه « شاهان مرد » الى كتاب الفارسية فبرع فيها حتى صار من افهم الناس بها وافصحهم بالعربية فسعى المرزبان لادخاله في الديوان فوضعه عند كسرى ابرويز فانبته كسرى في الديوان مع ولد المرزبان . فظل عدي بن زيد يكتب لكسرى ويترجم اذا وفد عليه زعماء العرب (٢) ويظهر انه كان يتمتع بمنزلة رفيعة عنده حتى كان يشاوره في امور الحيرة بل وكان له تأثير كبير في سياسة هذه المقاطعة وملوكها وقد ذكر الاصفهاني حكاية في ذلك تظهر مقدار هذا التأثير نلخصها فيما يلي + قال لما مات المنذر خلف عشرة اولاد او ثلثة عشر اوصى بهم الى اياس بن قبيصة

---

(١) Nicholson : ٤٥

(٢) الاغاني . ٢ + ١٠٠ — ١٠٣ ، مروج الذهب . ٣ + ٢٠٤ — ٢٠٥

الطائي وملّكه على الحيرة الى ان يرى كسرى رأيه فمضى على ذلك اشهرا وكسرى في طلب رجل يملّكه عليهم فلما لم يجد احدا يرضاه ضجر وقصد ان يبعث الى الحيرة جيشا من الاساورة وان يملك عليها رجلا من الفرس وكان عدىّ بن زيد واقفا فسئله فيما اذا بقي من آل المنذر احد فيه خير فاجاب ان من ولد المنذر بقية وفيهم لهم خير فامره باحضارهم ولما كان النعمان بن المنذر رباه عدىّ بن زيد نفسه سعى في سبيل تمليكه كسرى اياه حتى ملّكه على الحيرة (١) ويظهر من الحوادث الواقعة انه كانت تخفى وراء هذه الظاهرة الودية منافسة شديدة في الحكم بين القائمين بامور العرب في ديوان الاكاسرة وبين ملوك الحيرة ، وقد ظهرت هذه المنافسة من عصر كسرى ابرويز (٥٩٠ — ٦٢٧) وادت الى ذيول كان لها اثر غير قليل في تاريخ الساسانيين والحيرة معا . ففي هذا العصر كان كاتب العرب في الديوان عدىّ بن زيد الذى استطاع بفضل براعته في فنون الكتابة والادب وبفضل ما كان له من عقلى ودهاء ان يكسب مكانة عند كسرى وكان الجالس على عرش الحيرة حينئذ النعمان بن المنذر وهو وان اعتلى هذا العرش بسعى عدىّ بن زيد الا انه كان من البأس والاقدام بحيث لم يكن ليتحمل ان يشاركه احد في الحكم . يحدثنا المؤرخون ان النعمان غضب على عدىّ ويقول الطبرى انه غضب عليه لكتاب كتبه اعداؤه من لسانه ، وعلى كل حال طلبه النعمان وهو في خدمة كسرى فاستاذن كسرى وهو لا يعلم ما خباه له الزمان فلما اتى النعمان حبسه (٢) وارسل كسرى كتابا الى نعمان يامره باطلاق سبيله ولكن النعمان حين عرف ذلك قتل عديّا قبل وصول الرسول اليه فلما وصل اليه الرسول

---

(١) الاغانى . ٢ + ١٠٩ — ١١٠

(٢) الطبرى . الجملة الاولى + + ١٠٢٠

استوثق منه ان لا يخبر كسرى الا انه قد مات قبل ان يقدم عليه وزاد في جائزته واكرامه (١) خلف عدىّ بن زيد ابنه زيد بن عدىّ ، يقول الطبرى ان نعمان هو الذى بعثه الى كسرى ليولية امر الديوان (٢) وكان زيد يترصد ان يجد موجدة للنعمان يمكنه من اخذ ثأر ابيه ولم يلبث حتى وجد ذلك فسعى عند كسرى على النعمان حتى اغضبه عليه ، وكان من نتيجة ذلك ان استحضر كسرى النعمان من الحيرة فلما حضر النعمان امر بقتله (٣)

ويظهر من الطبرى انه كان يشتغل في الديوان غير عدىّ بن زيد واحد آخر من ابناء زيد بن حماد . يقول عندما قدم زيد بن عدى على كسرى جعله مكان ابيه وصرف عمه الى عمل آخر (ص ١٠٢٤) ولكنه لم يذكر اسمه ولا نعرف عنه شيئا آخر .

ويصرّح الاصفهاني ان عدىّ بن زيد اول من كتب بالعربية في ديوان كسرى (٢ : ١٠٣) مما يدل على ان الكتب الصادرة من الديوان الى ارض العرب وملوك الحيرة لم تكن تكتب بالعربية قبل كسرى ابروز .

وكان للكاتب المتصدى لامر العرب في الديوان وظيفة موظفة منهم وكانوا يدفعون هذه الوظيفة بالامتعة لا بالنقد فيبعثون اليه في كل سنة مهران الشفران والدماة الرطبة في حينها والياسة والاقط والادم وساير تجارات العرب (٤)

---

(١) الطبرى الجملة الاولى ١٠٢٣

(٢) // // // ١٠٢٤

(٣) راجع هذه الحكاية في الطبرى الجملة الاولى ص ١٠٢٤ — ١٠٢١

(٤) الطبرى الجملة الاولى ١٠٢٤ و Christensen: ١٣٠

الكتّاب كطبقة اجتماعية

كان المجتمع الايراني ~~قديما~~ ينقسم قديماً الى قبل الساسانيين الى ثلاث طبقات متمايز بعضها عن بعض وهي + الروحانيون والمحاربون والزارعون (الزراع) وقد اشير في بعض المصادر القديمة الى طبقة رابعة وهي طبقة المهان واهل الحرف . وظلّ هذا النظام معمولا به حتى آل الامر الى آل ساسان . فلما قام الملوك الساسانيون ~~في~~ باصلاح النظم القديمة وايجاد قواعد حديثة توافق مع روح الدولة وتقدم حضارتها عدّلوا هذا النظام ايضا فزادوا على الطبقات المذكورة طبقة اخرى هي طبقة الكتاب وادمجوا الزرّاع والمهان في طبقة واحدة فاوجدت بذلك الطبقات الاربعة الآتية +

١ — الروحانيون — وهم الفقهاء والنسّاك وسدنة بيوت النيران

٢ — المحاربون — اى الجند باصنافه

٣ — الكتاب — وهم القائمون بامر ادارة المملكة ويدخل في هذه الطبقة الاطباء والمنجمون ايضا والشعراء

٤ — الزرّاع والمهان واضرابهم من عامة الشعب .

وانقسم كل من هذه الطبقات الى عدة مراتب فانقسمت طبقة الروحانيين الى القضاة النسّاك والدستورين * (١) والمعلمين . والطبقة الثانية الى الفرسان

---

(١) ولا نعلم بالحقيقة ما اذا كانت وظيفة هذا الصنف والكلمة بالفارسية دستوران وقد ترجمها الاستاذ كوستين سن بكلمة surveillant اى الناظر والمباشر وقد ورد ذكرها في البيروني في ذكر التكبير في زمن يزدجرد بن سابور قال * تولاه رجل من الدستورين يقال له يزدجرد الهزاري * (الآثار الباقية + ٤٥) والظاهر انه يقصد طبقة من المنجمين او المهندسين او ما شاكل من ملائم شغلهم مع ما نسب اليهم .

والمشاة وغيرها من اصناف الجند والطبقة الرابعة الى التجار والزراع واهل الصنعة .

اما الطبقة الثالثة اى الكتاب فانقسمت الى اربع مراتب وهي +

١ — كتّاب الرسائل

٢ — كتّاب المحاسبات

٣ — كتاب الافضية والسجلات والشروط والمقصود بها الاحكام القضائية والاسناد القانونية

٤ — كتّاب السير اى كتاب التواريخ الرسمية الموجودة في بلاط الاكاسرة والمؤرخين

وكان لكل طبقة من هذه الطبقات انظمة خاصة ومراتب معينة يرأسها رئيس يدير شؤونها الداخلية والخارجية ولهؤلاء الرؤساء الاربعة منزلة رفيعة في الدولة الساسانية والقاب بهم في هذه الدولة كما يلي +

١ — موبذان موبذ (mobaathan mobaath) رئيس طبقة الروحانيين وقد ذكر في الكتاب العربية " باسم " الموبذان" غالبا .

٢ — ايران سپهبذ (Eran-spahbaath) رئيس طبقة المحاربين والاساورة

٣ — ايران دبيربذ (Eran-dibherbaath) رئيس طبقة الكتاب وورد في الكتب العربية وفسّره المسعودي حافظ الكتّاب (التنبيه والاشراف ١٠٤)

(١)

---

(١) وقد ظن الاستاذ احمد زكي باشا ان عبارة المسعودي حافظ الكتاب وذهب الى ان المقصود من الكتاب الكتاب المقدس عند المجوس بل وذهب الى تفسير ابعد من ذلك وقال ربما كان الصواب في هذا المقام "دبيريد" من كلمتين الاولى فارسية والثانية عربية بمعنى " كاتب اليد " (راجع كتاب التاج بتصحيح احمد زكي باشا ص ٧٧ ذيل رقم (٢)

٤ - واستريوشان سالار (Vāstryoshānsālār) رئيس طبقة الزراع والسكان .

وكان في خدمة كل من هؤلاء الرؤساء ثلاثة عمال او المباشرين احدها للاشراف على احصاء افراد الطبقة والثاني للنظارة في امر ايرادات الافراد والثالث يسمى " اندرزبد " ليعلم كل فرد منذ الحداثة علما او صنعة توهله لكسب المعاش " (١) ولصنعة الكتابة اهمية كبيرة في الدولة الساسانية كما ان لطبقة الكتاب ايضا مكانة عاليه في هذه الدولة فهذه الطبقة تعدّ من الطبقات الممتازة ولم يكن يقبل لوظيفة الكتابة والعمل في الديوان الا من اصحاب البيوت والعظماء واولاد المرازبة والدهاقين . وقد اورد الفردوسي في الشاهنامة قصة عن كسرى انوشروان تدلّ على تشدده في حفظ حدود هذه الطبقة وترفعها عن طبقة العامة . تلخص هذه القصة فيما يلي : عندما كان كسرى انوشروان في محاصرة حلب وهو في الحرب مع الروم عجز حاصل الخزانة عن مشاهرات الاجناد ووظائفهم فامر بزرجمهر وزيره ان يطلب المال من مازندران ولكنه رأى من الاحسن ان يستقرض من التجار واصحاب الاموال الذين هم في البلاد القريبة منهم ، نظرا لبعد المسافة وقلة الوسائل

---

(١) راجع في ذلك الرسالة تنشر من نشر دار مستنر Journal asiatique سنة ١٨٩٢ القسم الثاني ص ٢٠٠ - ٢٥٠ وترجمتها بالافرنسية في نفس المصدر ص ٥٠٢ - ٥٥٥ . وراجع ايضا Christensen ص ٩٤ . وانظر ايضا في آخر الكتاب نفسه القيمة الثانية في لائحة اصحاب المناصب الكبار في الامبراطورية الساسانية ص ٥١٣ - ٥٢١

فارسل اليهم رسولا يطلب منهم ذلك فلما انتهى الرسول الى حيث امر اجتمع اليه ارباب الاموال وفي جملتهم رجل اسكاف فبعث الى بزرجمهر كلما كلما كان قد طلبه من المال وسأله عوضا عن ذلك ان يستأذن الملك ليسلم ولده المؤدبين والمعلمين ليتعلم الخط والادب ويدخله الملك في طبقة الكتاب ، فلما عرض بزرجمهر ذلك على كسرى لم يقبل ما سئله الاسكاف وامر برد ما كان قد بعثه من الاموال ومن جملة ما قال ليزرجمهر في هذا الصدد " اما تعلم ان ولد المحترف اذا صار كاتبا اديبا وعالما اديبا صار من الغد لولدنا خادما ومنه قريبا فلا يبقى عند اهل الادب وارباب الحسب والنسب من اهل البيوتات واصحاب المروآت سوى الهم والحزن والحسرة والاسف" (١) ويمثل الاسكاف في الروايات الساسانية الطبقة العامة و اهل الحرف (٢)

والحقيقة ان نظام الطبقات كان على اشده في الدولة الساسانية فلم يكن يسمح لاحد من افراد طبقة العامة ان يدخل في احدى الطبقات الثلاثة التي كانت تعد من الطبقات الممتازة ، اللهم الا اذا كان ذا استعداد خاص واظهر براعة توهله للتوفيع وحينئذ كان الامر يرفع الى الملك نفسه وكانت تنظر فيه الفقهاء وعلماء الدين فان كان موصوفا بالزهد الحق بطبقة الموبذان وان كان ذا شجاعة واقدام ادخل في صف المحاربين والاساورة وان كان متحليا بالعقل والذكاء الحق بطبقة الكتاب ولكن كان عليه ان ...

---

(١) راجع العقبة في الشاهنامه (طبع خاور — طهران) مجلد ٤ + ٥٤٣ — ٥٤٥ ، ترجمة البنداري مجلد ٢ + ١٦٤

(٢) Christensen ٣١٤ — ٣١٥

على كل حال ان يتعلم قبل الالتحاق المعلومات اللزمة لكل طبقة (١)

مكانة الكتّاب من الدولة الساسانية

كانت للملوك الساسانيين عموما عناية بالغة في تكريم اهل العلم والحكمة واصحاب العقل والتدبير وقد ورد عنهم في ذلك حكايات كثيرة واشتهر من بينهم كسرى انيشروان الذى عرف في كتب الادب والتاريخ كزعيم للحركة العلمية في ذلك العصر وقد بلغ في اعجابه بوزيره الحكيم بزرجمهر بحيث امر ان يكتبوا كلامه بالذهب . (٢) وكان الملوك في ذلك العصر يتبارون بفضل كتابهم ووزرائهم وكانت تجرى بينهم مباحثات حول المسائل العويصة واللغز والرموز الحكمية فكثيرا ما نجد في الروايات التاريخية ان الملك الفلاني ارسل الى الملك الفلاني بكتاب يسأله عن اشياء في الحكمة وما شاكل. قال النظامي العروضي " وقبل ذلك بزمان كان الرسم عند ملوك العصر وجهابرة الزمان كالبيشداديان والكيان والاكاسرة والخلفاء ان يتفاخروا ويتبارزوا بالعدل والفضل فكانوا يبعثون مع كل رسول من رسلهم بحكم ورموز ولغز ومسائل ولذلك ان الملك يحتاج الى ارباب العقل والتمييز واصحاب الراى والتدبير فكانوا يعقدون عدة مجالس ويقومون حتى تستقيم الاجوبة على وجه وينكشف تلك الرموز واللغز " (٣) وكان ضمن الكتب البهلوية التي وصلت الى مسلمين عدد غير قليل من هذا النوع من الكتب ككتاب المعروف بكتاب المسائل التي انفذها

---

(١) Christensen + ٢١٥

(٢) مروج الذهب ٢ + ٢٠٧

(٣) چهار مقاله ٢٧

ملك الروم الى انو شيروان على يد بقراط الرومي وكتاب ارسال ملك الروم الفلاسفة الى ملك الفرس يسأله عن اشياء من الحكمة وما الى ذلك من الكتب (١) ولعل اشهرها قصة الشطرنج التي نسبت الى انو شيروان والى ملك من ملوك الهند وقد نظمها الفردوسي في الشاهنامه وهي موجودة ايضا في اصلها البهلوي ويحتفظ حمزة الاصفهاني عن ملوك الطوائف ويقول عنهم انهم رفعوا الحرب والتجازب فيما بينهم فكان الواحد منهم انما يغلب الآخر بالمسائل العويصة ويذكر عدة كتب من هذا القبيل وضعت في ايامهم ويقول ان عددها يقرب سبعين كتابا ويظهر انها كانت موجودة في عصره (٢) وكان ذلك احد الاسباب الهامة في اهتمام هؤلاء الملوك بجمع العلماء والكتاب في بلاطهم . ورد في نسخة خطية من نهاية الارب ان بلاط كسرى كان حافلا بسبعين من العلماء واصحاب التدبير غير بزرجمهر بن الختكان وبه شاهبور (موبذان موبد) ويزدكرد (رئيس الكتاب) (٣) فالكتاب في ذلك العصر كانوا يعدون من اسباب ابهة الملك وتوقع الملك وقد اشتهر بلاط كسرى ابرويز بالعظمة والجلال وورد عن ذلك حكايات كثيرة ومن جملة ما ذكر مما ازدان به هذا البلاط بجانب الاساورة والابطال طبقة الكتاب التي تعد من مزاياه البارزة نقراء في قصيدة قيلت في قصر شيرين (٤) بعد خرابها في الاسلام الابيات التالية +

---

(١) الفهرست ٣١٦

(٢) تاريخ سني ملوك الارض + ٣٦

(٣) J. R. A. S. سنة ١٩٠٠ + ٢٢٢ مقالة Browne ومجلة مهر السنة الاولى + ٥٢١

(٤) وهو قصر بناها كسرى ابرويز قرب كرمنشاه وكانت تعد من اعاجيب الابنية

قد صار قفرا خلاء ما بها احد ... الا النعام مع الوحشية العين
من بعد ما كان ابرويز اشخصها ... بالدارعين وكتاب الدواوين
وكل ليث شجاع باسل بطل ... كمثل خوشنها او مثل شروين . (١)

على انه كان لتعزيز جانب الكتابة في الدولة الساسانية سبب آخر اكبر واهم مما ذكرناه وهو ان الكتاب كانوا هم القائمين بادارة المملكة الحقيقيين فقد مر معنا انه كان لكل شأن من شؤون الدولة ديوان خاص وكانت الطبقة الكتاب هي المسيطرة على الدواوين والواسطة بين العامة والسلطان ولذلك يصفهم الموبذان بقوله " كتاب الملوك وعيونهم امينهم المصونة عندهم واذانهم الواعية والسنتهم الشاهدة " (٢) ويقول اردشير في حقهم " انهم خزنة سري وانسباروحي " (٣) . يحدثنا البيروني عن احد الاعياد الايرانية وهو عيد " تيركان " الذي كانوا يعظمون فيه الكتاب وذلك لان (تير) في الفارسية بمعنى عطارد وعطارد نجم الكتاب يقول في هذا اليوم قسمت لاوشهنج الدهقنة وهي والكتابة شيء واحد فصيروا هذا اليوم عيدا اجلالا واعظاما وفيه اوعز الى اهل الدنيا بان يتزيوا بزي الكتاب والدهاقين فبقي الملوك والدهاقنة والموابذة وغيرهم يتزيون بلباس الكتاب الى ايام يستاسف

---

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه + ١٥٩

(٢) عيون الاخبار ١٠ + ٤٧

(٣) الشاهنامه ترجمة البنداري ٠ ٢ + ٥٤

اجلالا للكتابة وتعظيما للدهقنة " (١)

وعلى كل لقد اكتسبت هذه الطبقة مكانة عالية في البلاد وعند الملوك واشرفت على جميع امور المملكة وتدخلت في شؤون الدولة مما استجلبت اليها الاخطار احيانا . (٢) وعد رئيس طبقة الكتاب من الشخصيات البارزة في الدولة الساسانية وكان له يد طولى في سياسة البلاد الداخلية . فمن مزاياه المشاركة في امر انتخاب الملك اذا اقتضت الحالة ذلك . ورد في التاريخ ان اردشير بن بابك موسس الدولة الساسانية لم يعين من يخلفه في الملك بل كتب ثلاث كتب بخطه ووضع كل واحد منها عند امين ومعتمد احدها عند رئيس الموابذة وثانيها عند رئيس الكتاب وثالثها عند كبير الاصفهبذين وامرهم في تلك الرسائل المختومة التي كانت تفتح بعد وفاته ان ينتخبوا من بعده من بين الامراء من يليق للحكم (٣) ويذكر الدينوري من اعضاء المجلس الذي عقده اكابر الدولة وعظماء المملكة بعد وفاة يزدجرد بن شابور (٣٩٩ — ٤٢٠م) لتعيين الملك والنظر في امر بهرام جور ثلاثة من الكتاب احدهما كاتب الجند والثاني كاتب الخراج والثالث صاحب صدقات المملكة (٤) وكما يستفاد من رواية الفردوسي كان " كشسب " رئيس الكتاب الذي تكلم في هذا المجلس عند بهرام لابعاده من الحكم (٥) وهناك روايات عديدة في الكتب العربية

---

(١) الآثار الباقية + ٢٢١

(٢) يحدثنا الفردوسي انه لما تسنم هرمز بن كسرى (٥٧٩ — ٥٩٠) على عرش الملك امر بقتل ثلاثة من كتاب ابيه وهم ايزدكشب ، وبرزمهر وماآذر شاهنامه ج ٥ + ٤ راجع ايضا مجمل التواريخ مجلد ١ القسم الرابع + ٤٢١ و ٣٩٨

(٣) رسالة تنسر Darmesteter ص ٢٤٠ Christensen ص ٥٩ .

(٤) الاخبار الطوال . ٥٧

(٥) الشاهنامه + ٤ + ٢١١ (ط خاور طهران)

تدل على منزلتهم الرفيعة عند الاكاسرة ذكر الجاحظ رواية في الايام التي كانت الاكاسرة يقعدون فيها للعامة لرفع مظالمهم والنظر في رقاعهم قال فيه + " فان كان فيها (الرقاع) شيء يتظلّم فيه من الملك بدئ به اولا وقدّم على كل مظلمة . ويحضر الملك الموبذ الكبير والدبيربد وراءس سدنة بيوت النار " (١) وذلك ليتحاكم الملك وخصومه عندهم . وفي رواية اخرى عندما يذكر سنة الملوك اذا داهمتهم الكوارث والعظائم يقول انهم كانوا يقتصرون على مائدة لطيفة تقرب من الملك ويحضرها ثلاثة : احدهم موبذان موبذ والدبيربد وراءس الاسارة " (٢) ويستفاد من بعض المصادر ان رئيس الكتاب كان يتقلد احيانا وظائف عسكرية في ايام الحرب نقل عن المؤرخ البيزانطي عندما يشرح حروب شاهبور الثاني (٣١٠ — ٣٧٩) مع الارمنية ان من القواد الذين اشتركوا في هذا الحرب كرئيس الكتّاب (دبيران دبير) (٣)

ونجد في النظم الادارية الساسانية بجانب منصب الكتابة منصب آخر وهو ما لقّب في البهلوية " بزرجفر مدار Buzurg-framadar " اى الوزير الاعظم وهو اعلى المناصب في الدولة بعد الملك وله الاشراف على كل شؤون المملكة كما ان له حق نيابة الملك عند غيابه ولذلك كان يتمتع بقدرة عظيمة حتى عصر قباذ الاول وابنه كسرى انو شيروان عندما قللوا من وظائفه وقسّموها الى

---

(١) التاج + ١٦٠

(٢) // + ١٧٣

(٣) Christensen + ١٢٥

اقسام مما ادى الى تقليل نفوذه في الدولة . وقد ورد في بعض الروايات لفظة الكتّاب " مرادفة للوزراء " (١) مما يدلّ على ان الوزارة والكتابة كانتا تمتزجان احيانا او انه كان ينظر الى رؤساء الدواوين كوزراء كما نرى ذلك في الاسلام وعند العرب فيما بعد قال الاستاذ كوستن سن ان منصب " بزرجفر مدار " في الدولة الساسانية هو عين ما ظهر في الاسلام باسم منصب الوزارة وليس بينهما اختلاف اساسي بحيث يمكننا ان ندرس هذا المنصب على ضوء ما ذكره المؤلفون العرب في الوزارة الاسلامية (٢) ولذلك لا نطيل بذكره هنا .

ثقافة الكتّاب

يظهر مما وصل الينا من الآثار الساسانية انه كان على القائمين باعمال الدولة من الكتّاب والعمّال ان يتعلّموا قبل استخدامهم في الديوان او في عمل آخر ، ما يؤهّلهم للقيام بوظيفتهم فمن الاعمال الاصلاحية التي قام بها كسرى انو شيروان بعد فتن المزدكية انه امر بتعليم اولاد العظماء واهل البيوتات من العائلات التي قتلت رؤساؤها في تلك الفتن واستخدمهم في ادارة البلاد . (٣) قال القلقشندي " وكانت ملوك الفرس لرفعة رتبة الكتابة عندهم تجمع احداث الكتاب ونواشئهم المعترضين لاعمال الملك ويأمرون رؤساء الكتابة بامتحانهم فمن رضي افرّ بالباب ليستعان به ثم يأمر الملك بضمّهم الى العمّال واستعمالهم

---

(١) عيون الاخبار ، ١ + ٤٧

(٢) Christensen ١٠٨ — ١١٠ انظر ايضا + ٥١٦ — ٥٢١

(٣) ابن بطريق + ١٢٠ أ (من مخطوطة للمكتبة الشرقية (بيروت — اليسوعية)

في الاعمال وينقلهم في الخدم على قدر طبقاتهم من حال الى حال حتى ينتهي بكل واحد منهم الى ما يستحقه من المنزلة " (١) وقال الفردوسي فيما ذكر من سنن اردشير انهم كانوا يحفظون في البلاط باسمر الكتاب ويبعثون الى عمالهم في الولايات من كان اقلّ حظا منهم في الكتابة (٢) مما يدلّ على انه كان للكتّاب مراتب مبنية على مقدار ثقافتهم ومعرفتهم في هذا الفنّ اما ثقافتهم فمما لا شكّ فيه انها كانت مبنية على اساس الثقافة العامة في ذلك العصر مما يحملنا على القاء نظرة اجمالية على المواد التي كانت تتعلم في ذلك العصر عموما .

من المصادر التي تساعدنا على فهم الثقافة العامة في العصر الساساني رسالة بهلوية باسم " الملك كسرى وغلامه " (٣) التي نقل الثعالبي قسما من مطالبها ففي هذه الرسالة عندما يشرح الغلام للملك معارفه في فنون العصر وما تعلّمه من العلوم المتداولة يقول ان ابواه اسلماه الى المؤدّب في السنّ المقتضى للتعلّم فحفظ من الغيب اقساما من كتابي " افستا " و" الزند " (٤) ثم تعلّم الادب والتاريخ وعلم البلاغة وفنّ الفروسية والرماية وكيفية استعمال الرمح والبلطة (الفأس) ، كما تعلّم الموسيقى والغناء والنجوم وبهر في لعب الشطرنج وغيره من العاب العصر . ثم يشرح الغلام بعد ذلك ما له من المعلومات

---

(١) صبح الاعشى ١ : ٤٤ - ٤٥

(٢) الشاهنامه ، ٤ + ١٢٨

(٣) King Kusrau and his Boy نشره J. M. Unvala (باريس سنة ١٩٢١

(٤) Avesta الكتاب المقدس عند الزردشتيين وهو الذي جاء به نبيهم زردشت . ZAND تفسيره في اللغة البهلوية

في النواحي الاخرى كالطبخ وآداب اللبس وغيرها من المعارف (١) ونجد في التواريخ بعض التفاصيل عما تعلّمه بهرام جور الذي تربّى عند المنذر ملك الحيرة قال الطبري " ووجّه المنذر الى باب الملك من اتاه برهط من فقهاء الفرس ومعلمي الرمي والفروسية ومعلمي الكتابة وحصة ذوي ادب وجمع له من حكماء فارس والروم " (٢) . وفي الشاهنامه تفصيل اكثر في هذا المورد قال الفردوسي " نفذ (اي المنذر) الى بلاد ايران من اتاه باربعة من الموابذة احدهم ليعلّمه الخطّ والكتابة والثاني ليعلّمه الصيد والطرد والثالث من يعلمه الرماية واللعب بالكرة والصولجان ومطاردة الاقران في الضراب والطعان وتصريف الاعنّة يعطفها يمنة ويسرة في المعترك والميدان والرابع من يسرد عليه سير الملوك وتواريخهم ويخبره عن افعالهم الحميدة واقوالهم السديدة " (٣) ويظهر من رسالة اخرى من الرسائل البهلوية باسم " يندنامك زردشت " انه كان على الاحداث ان يعرفوا في الخامسة عشر من عمرهم اصول الديانة الزردشتية طبقا لكتابي افستا والزند وان يعرفوا في هذا السنّ وظائفهم الدينية وتكاليفهم الشرعية وكانوا يقدمون في سنّ العشرين امتحانا بحضور علماء الدين " الهرابذة " وطبقة اخرى من الروحانيين باسم " دستوران " (٤) وقال برزويه وهو الذي اتى بكتاب كليله ودمنه من الهند انه لما بلغ سبع سنين اسلمه ابواه الى المؤدّب فلما حذق الكتابة كان اول ما ابتدأ به من العلوم وحرص عليه علم الطبّ (٥)

---

(١) Christensen + ٤١٢

(٢) الطبري الجملة الاولى + ٨٥٦

(٣) الشاهنامه ترجمة البنداري ، ٢ + ٧٥ — ٢٦ والاصل الفارسي ، ٤ + ١٩٩ — ٢٠٠ وقد ورد في الاصل " ثلاثة من الموابذة " بدلا من الاربعة الا انه عند التفصيل ذكر اربعة .

(٤) Christensen + ٤١٢ (٥) كليلة ودمنه اول باب برزويه

هذه هي المواد التي كانت تدرس في تلك الايام وتمثل الثقافة العامة في ذلك العصر ولا نعلم تحقيقا مدى انتشار التعليم بين الطبقات المختلفة يحدثنا ابن رسته عن " اشروسنان " من مناطق اصفهان يقول +

" وبها كان مولد كسرى انو شروان ومنها حمل الى دار المملكة فملك وكان يختلف منه الى كتّابه ثمانون صبيا من اهل هذه القرية فلما ملك حملهم الى حضرته ووصلهم واكرمهم ... " (١) فاذا صحت هذه الرواية فقد كان امر التعليم قد تقدم في عصر الساسانية تقدما كبيرا بحيث كان يوجد في كتّاب بلدة صغيرة ثمانين تلميذا على اننا كثيرا ما نجد في الروايات الساسانية ذكر الكتاتيب والمعلمين والمؤدبين مما يظهر انها كانت منتشرة في البلاد . وقد كان ضمن النقوش التي صورت في طاق بستان " في عهد كسرى ابرويز صورة تمثل احدا من هذه الكتاتيب مع الصبيان والمعلم وقد وصف هذه الصور احمد بن محمد الشاعر في قصيدة اولها — بوستا ن طاق ليس في الارض مثله وفيه تصاوير من الصخر محكم

ثم يصف تلك التصاوير واحدا بعد آخر الى ان يقول +

ومكتب صبيان وتأديب غلمة وشيخ عديم قيل هذا معلّم (٢)

واذا تأملنا في الفنون والمعارف التي مرّ معنا ذكرها نرى انها تنقسم الى ثلاثة اقسام الاول ما يدخل تحت الادب كالكتابة والبلاغة والآداب والسير والتواريخ وما شاكل والثاني ما يدخل ضمن الفنون الرياضية والحربية كفن

---

(١) الاعلاق النفيسة + ١٥٣

(٢) البلدان لابن الفقيه + ٢١٦

الفروسة والرماية واللعب بالصولجان وما الى ذلك من الالعاب والثالث العلوم الدينية الزردشتية كقراءة اوستا والزند وغيرهما من الكتب الدينية ، هذا اذا استثنينا بعض العلوم المختصة بطبقات خاصة كعلمي النجوم والطب وما شاكل .

ومن الطبيعي أن تعليم هذه الفنون اذا استثنينا المبادئ الدينية التي كانت معلوفتها لازمة للجميع كانت تختلف حسب اختلاف الطبقات فبينما كانت معرفة القسم الاول من شرائط الكتاب والقائمين بامر الدواوين كان القسم الثاني مما تهتم به طبقة الامراء والاساورة كما ان التوسع في العلوم الدينية كان من وظائف علماء الدين .

ورد في بعض المصادر الساسانية ذكر عن ثلاث طبقات من المعلمين الاولى ما اختص بكل طبقة من الطبقات الاجتماعية الاربعة ليعلم افراد هذه الطبقة من الحداثة علما او مهنة يهيئه للحياة كما مر معنا والثاني طبقة المعلمين من الروحانيين الذين رتب لهم اردشير الرواتب وجعلهم من المعلمين الرسميين والثالث معلم الاساورة الذين بعثهم اردشير الى انحاء البلاد ليعلموا اولاد الاساورة الفنون الرياضية والحربية وانواع الآداب (١) وكانت هذه الطبقة الاخيرة تحت اشراف ديوان الجند فعما كان يقوم به هذا الديوان في زمن كسرى انوشيروان محاسبة المؤدبين على ما يأخذون على تأديب الرجال بالفروسة والرمي والنظر في مبالغتهم في ذلك وتقصيرهم (٢)

من اهم ما كان يطلب من الكتاب في العصر الساساني حسن الخط

---

(١) رسالة تنسر ١٨٩٤ / ٢ + ٢١٨

(٢) اخبار الطوال للدينوري + ٧٤

والواقع ان لحسن الخط وجمال العبارة اهمية كبيرة في الكتابة الساسانية وكانوا يعنون بذلك عناية بالغة كما انهم كانوا يبذلون جهودا كبيرة في تحسين ورق الكتب والرسائل وتلوينها بالالوان الزاهية وتزيينها بالصور الجميلة وقد ورد بذلك روايات كثيرة كما انه وصل الى العرب في القرون الاولى الاسلامية عدد غير قليل من تلك الكتب المصورة ولعل من اشهر هذه الكتب كتاب " ارتنك " للماني الذى اشتهر بنقوشه وتصاويره (١) وكذلك صور ملوك بني ساسان الذى رآه المسعودى في اصطخر (٢) والذى استخدمه حمزة الاصفهاني . ووجد في بيت افشين من الكتب الزردشتية كتاب " يسنّ " بالذهب والجوهر والديباج (٣) مما يدل على ذوق فني غايته افراغ الكتب بمظهر رائق انيق قال الجاحظ في كتاب الحيوان "قال ابرهيم السندى مرة ودد فان الزنادقة لم يكونوا حرصى على المغالات بالورق النقيّ الابيض وعلى تحلّل الحبر الاسود المشرق البراق وعلى استجادة الخط والارغاب لمن يخطّ فاني لم ار كورق كتبهم ورقا ولا كالخطوط التي فيها خطأه (٤) ومن اهم ما كان يفضل به الكتّاب ويحسن به مراتبهم كان حسن الخط والبلاغة ، قال الفردوسي في سيرة اردشير بن بابك" انه كان يستخدم في ديوانه اصحاب العلم والتدبير ولم يدع عملا الى الجهال وكان ذا عناية بمن يكون بارعا في البلاغة موصوفا بحسن الخط" (٥) اما البلاغة

---

(١) وقد وجد بعض الاوراق من هذا الكتاب في " طورفان " راجع Christensen ١٩٨ — ١٩٩

(٢) التنبيه والاشراف + ١٠٦

(٣) الطبرى الجملة الاولى + ١٣٠٩

(٤) الحيوان ٠ ١ + ٢٨

(٥) الشاهنامه ٠ ٤ + ١٢٨ ٠ ترجمة البندارى ٠ ٢ + ٥٤

فما لا شك فيه انها كانت ركنا من ارکان الکتابة وبما اننا سوف نکتب فيها کلمة في باب اسلوب الانشاء في ذلك العصر لا نطيل هنا بذکرها .

على ان المعارف المطلوبة من الکتاب لم تکن مقتصرة فيما ذکرناه بل کان يطلب من الکاتب معلومات واسعة تؤهله للکتابة في جميع النواحي التي کانت تمس حياة الدولة وکان عليه ان يکتب فيها ، کما سنرى ذلك في العصور الاسلامية ولذلك کانوا يقولون " من لم يکن عالما باجراء المياه وحفر فوهر المشارب وردم المهاوى ومجارى الايام في الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر في استهلاله وافعاله ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه وحال ادوات الصناع ودقائق الحساب کان ناقصا في حال کتابته (١) وکذلك کانت معرفة الايام والسير وانواع الآداب والنجوم مما يطلب من الکتاب وقد قال بزرجمهر لرجل + " ان اردت ان تبلغ احظى درجة الآداب واعلاها فاصحب ملکا او وزيرا فانهما برغبتهما في معرفة ايام الملوك واخبارهم والآداب واعلاها وفسحة الفلك ونجومه يبعثانك على طلب ذلك " (٢)

کيفية العمل في الدواوين الساسانية

لعل من الصعب ان نشرح هنا بالتفصيل کيفية العمل في هذه الدواوين والنظام السائد فيها نظرا لقلة ما نقل الينا المؤرخون عن هذه الناحية من حياة الدولة الساسانية ، الا ان باستطاعتنا مع ذلك ان نحصل من خلال مصادرنا

---

(١) ابن قتيبه مقدمة ادب الکاتب (طبع ليدن ١٩٠٠) ~~وعيون الاخبار~~ وعيون الاخبار ٠ ١ + ٤٤

(٢) البلدان لابن الفقيه ٠ ١

على معلومات لها اهميتها في ايضاح الطرق المتبعة في تلك الدواوين .

عندما كان الملك يريد اصدار حكم الى عماله او بحث رسالة الى ملوك الاطراف اوغير ذلك من الاغراض التي توجب اصدار الكتب والرسائل من الديوان عادة . كان صاحب التوقيع (١) يوقع ما امر به الملك بين يديه ثم يثبته كاتب آخر في دفتر خاص لتثبت هذه التوقيعات (تذكرة) (٢)

---

(١) يرى الاستاذ كريستن سن من المحتمل ان يكون صاحب التوقيع هنا هو رئيس الكتاب يعني (ايران ويبويد) راجع ٣٨٩

(٢) وقد سمي هذا الديوان بديوان الخاتم (الفخري ٢٠ ١٢٠

الذى كا ن يجمع وينظم في آخر كل شهر ويحفظ في الخزانة بعد ان ختم عليه الملك بخاتمه . ثم ينفذ التوقيع بعد ثبته في دفتر التوقيعات الى صاحب الزمام وهو كما مرّ بنا سابقا صاحب خواتيم الملك وكان عليه ان يختم التوقيع بما يعين له من الخواتيم (١) وينفذه بعد ذلك الى صاحب العمل

---

(١) وكان لكل عمل من اعمال الديوان خاتم مخصوص وفيما يلي شرح لهذه الخواتم في عهد كسرى ابرويز نقلا عن المسعودي مروج الذهب مجلد ٢ + ٢٢٨

١ لختم الرسائل والسجلات ... خاتم فصه ياقوت احمر نقشه صورة الملك وحوله مكتوب صورة الملك حلقته الماس

٢ — لختم التذكرات ... خاتم فصه عقيق نقشه " حراسان خرة " وحلقته ذهب

٣ — لختم اجوبة البريد .. خاتم فصه جزع نقشه فارس يركض وحلقته ذهب منقوش فيه الوحا

٤ . لختم البراوات والكتب بالتجاوز عن العصاة والمذنبين ... فصه ياقوت مورد نقشه " بالمال ينال الفرج " وحلقته ذهب

٥ — لختم خزائن الجواهر وبيت مال الخاصة وخزانة الكسوة وخزانة الحلى فصه ياقوت بهرمان وهو احسنها يكون من الحمرة واصفاها واشرفها نقشه " خرة وحرّ " في بهجة وسعادة مثناه لولو الماس (ولم نجد في حرف الهاء)

٦ — لختم كتب الملوك الى الآفاق ... خاتم فصه حديد صيني ونقشه عقاب

٧ — لختم الاطعمة والادوية والطيب ... خاتم فصه بازهر ونقشه ذباب

٨ — لختم اعناق من يؤمر بقتله وما ينفذ

صين الكتب في الدماء ... خاتم فصه جمان نقشه راعي خنزير

~~ينفذه بعد ذلك الى صاحب العمل~~ . وكان صاحب العمل يكتب بمضمون هذا التوقيع كتابا من الملك يفرغه في قالب ادبي واسلوب فني متبع في الديوان ويعد ان تم له ذلك يستنسخه وينفذ الاصل الى صاحب الزمام ليعرضه على الملك ويقابله بالتوقيع المسجل في الدفتر فان وجده مطابقا له في الفحوى يختمه بحضرة الملك او اوثق الناس عنده . وحينئذ كان الكتاب حاضرا للصدور .

كان صاحب الخراج (١) يقدم الى الملك في كل سنة تقريرا عن اعمال ديوان الخراج حاويا لمجموع ايرادات المملكة ومبلغ ما اجتبى من الخراج وكذلك مجموع ما انفق منها في وجوه النفقات . وما بقي منها في بيت المال ويقرأ هذا التقرير في حضور الملك بصوت عال وكان الملك يختمه ويجريه .

وكانت هذه التقارير او الرسائل تكتب في صحف بيض ولكنه لما كان كسرى ابرويز يتأنق بروائح تلك الصحف امر ان لا يرفع اليه صاحب ديوان خراجه ما يرفع الا في صحف مصفرة بالزعفران وماء الورد وان لا تكتب الصحف التي تعرض عليه بحمل المال وغير ذلك الا مصفرة . (٢)

وكان يحفظ من الاحكام المهمة الصادرة من الديوان الى العمال نسخة في ديوان الملك نفسه . يحدثنا الطبري عما فعله كسرى انو شروان لاصلاح امر الخراج والوضائع التي وضعها قال فيه " وامر كسرى فدونت وضايعه نسخا فاتخذت نسخة منها في ديوانه قبله ورفعت نسخة الى عمال

---

(١) يرى الاستاذ كريستن سن ~~مزانه~~ " واستريوشان سالار " Vastryoshansalar اى رئيس الطبقة الرابعة من الطبقات الاجتماعية الاربعة في العهد الساساني الزراع والمهان

(٢) البلاذري رواية عن ابن المقفع فتوح البلدان ٤٦٤ راجع ايضا : Christensen ٣٨٩ :

الخراج ليجتبوا خراجهم عليها ونسخة الى قضاة الكور . وامر القضاة ان يحولوا بين عمال الكور والزيادة على اهل الخراج فرق ما في الديوان الذى دفعت اليه نسخته (١) ولم تكن الكتب الصادرة من الديوان كلها بقلم واحد بل كانت تختلف حسب اختلاف مواضيعها . فكانت للرسائل كتابة وللاحكام والعهود كتابة ولغيرها كتابة وهكذا ... وقد روى ابن النديم رواية عن ابن المقفع في انواع الخطوط السبعة الفارسية يستفاد منها ما يلي + كانت كتب العهود والصوريه والقطائع تكتب بكتابة يقال لها الكستج وهي كما قال ثمانية وعشرون حرفا وبها كانت تنقش خواتم الفرس وطرز ثيابهم وفرشهم وسكة دنانيرهم ودراهمهم . اما الرسائل فكانت تكتب بكتابة اخرى يقال لها " نامه دبيريه " اى كتابة الرسائل وهي كما وصفها ابن المقفع ثلاثة وثلاثون حرفا . اما الكتب التي كانت الملوك تكتبها في سر من الاسرار مع من يريدون من سائر الامم فكانت تكتب بكتابة خاصة يقال لها راز دبيريه "

---

(١) الطبرى + الجملة الاولى ٩٦٣ وفي الينورى + " وكتب تلك الوقائع في ثلث نسخ نسخة خلدها ديوانه ونسخة بعث بها الى ديوان الخراج ونسخة دفعت الى القضاة في الكور ليمنعوا العمال من الاعتداء ما في الدستور الذى عندهم اخبار الطوال + ٧٣)

اى كتابة السر او خط الرمز (١) ونجد في الروايات الساسانية اسم "كاتب السر مما يدل على انه ماخوذ من هذا النوع من الكتابة (راجع الاخبار الطوال ١٠٦

---

(١) الفهرست ١٣ و ١٤ واما الخطوط الباقية فهي + دين دبيرية " اى كتابة الدين وبنم كستج " لكتب الطب والفلسفة "و" الشاه دبيريه " وهي ما كانت الملوك يتكلمون بها فيما بينهم دون العوام ويمنع منها سائر اهل المملكة حذرا من ان يطلع على اسرار الملوك من ليس بملك ، (وهام دبيريه " وهي كتابة لسائر اصناف المملكة خلا الملوك فقط و" دنش دبيريه " (راس سهريه) يكتب بها المنطق والفلسفه ومن هذه الخطوط ما ذكره باسم " ويش دبيريه وقال عنه انه "ثلثمائة وخمسة وستون حرفا يكتبون بها الفراسة والزجر وخرير الماء وطنين الآذان واشارات العيون والايماء والغمز وما شاكل ذلك ولم يقع لاحد قلمها ولا في ابناء الفرس من يكتب بها اليوم ، سالت عماد العميد عنها فقال نعم هي تجرى مجرى الترجمة كما في الكتابة العربية تولجم "١٤) ولا يراد بالترجمة هنا معناه المعروف من نقل المعاني من لغة الى لغة بل المقصود منها الترجمة في المكاتبة وهي نوع من انواع الكتابة ، نقرا في كتاب ادب الكتاب في الترجمة في المكاتبة ما يلي + " اصل هذه اللفظة الفارسية وكذلك الترجمان وقد تكلمت بها العرب بعد ذلك وعربتها " وقال في تعريفها +" هي شبيهة بالمعمّى وهو ما يكتى من الشعر كانه يسمى الالف فاخته الباء صقرا والتاء عصفورا ثم يردد الحروف على هذا وترجمت له الامر اوضحته ، فحروف ا ب ت ث تسعة وعشرون حرفا ومنازل القمر الكاملة تسعة وعشرون منزلا بازاء كل حرف منزل وهذه المنازل هي + الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة ..الخ فاذا اردت ان تكتب (انا) كتبت الشرطين سعد الاخبية الشرطين)..الخ

اسلوب الانشاء

قال الاستاذ كريستن سن " كان للايرانيين منذ القديم العهد عناية بالغة بمراعات الرسوم وتجميل الظواهر ولذلك كان من النظم المتبعة في كتابة الرسائل الديوانية وغير الديوانية ان تفرغ هذه الرسائل في اسلوب فني وسبك صناعي مقرر ومن خصائصها انها كانت موشحة باقوال الحكماء والمواعظ الاخلاقية والدينية والاشعار والتعميات اللطيفة وما شاكل ذلك ولذلك كانت تخرج هذه الرسائل قطعا ادبية في غاية الظرافة والجمال وكانوا يراعون فيها من حيث الدقة في تركيب الكلمات وكيفية التعابير في مراعاة حال المتكلم والمخاطب ما حدثيا تظهر للقارئ بدقة وتحقيق مقام كل واحد من المخاطب والمتكلم وما بينهما من الروابط والعلائق . ويظهر في تلك الرسائل المتبادلة بين عمال الدولة الساسانية او بين الملوك الساسانيين وملوك الاطراف ذلك الميل الى الصنائع البلاغية والمحاسن اللفظية التي يتجلى في الكتب الادبية البهلوية وفي الخطب التي القاها الساسانيون عند اعتلاء العرش بل ويظهر هذا الميل في تلك الرسائل اكثر منه في تلك الكتب والخطب (١) .

نجد في كتاب " چهار مقاله " للنظامي العروضي من مؤلفي القرن الثاني عشر للميلاد وصفا للكتابة في عصره بشيء من الدقة والاختصار ، يطبقه الاستاذ

(تابع ما قبله ص ٤٤) ~~فاذا اردت ان تكتب (اذا) كتب والشرطين~~ منذ الاحقبة الشرطين لمعالج (ادب الكاتب للصولي ، ١٨٦ — ١٨٧) وهذا يدلنا على نوع كتابة (الشرطين) ويشبه ديبريه ، التي ذكرها ابن المقفع ويظهر من عدد حروفها ، ٣٦٥ ، انها كانت متبينة على منازل الشمس او ما يقارنها طبقا للتقويم الشمسي الايراني كما ان الترجمة العربية اصبحت متبينة على منازل القمر طبقا للتقويم العربي القمري

(١) Christensen ١٢٧ — ١٢٨

السار الذكر على الكتابة في العصر الساساني نظرا لعدم الفرق بين ما ذكره النظامي من اوصاف الكتابة وبين ما كان متبعا في ديوان الاكاسرة من الفنون والاساليب الانشائية . قال صاحب " جهار مقاله " + الكتابة صناعة مشتملة على القياسات الخطابية وبلاغة تنفع بها في المخاطبات بين الناس على سبيل المحاورة والمشاورة والمخاصمة في المدن والذم والحيلة والاستعطاف والاغراء و تعظيم الاعمال وتصغير الاشغال وتمهيد وجوه العذر والعتاب واحكام الوثائق واذكار السوابق واظهار النظلم وتركيب الكلام في كل حادثة ليؤدى على احسن وجه واحربه فيجب ان يكون الكاتب كريم الاصل شريف العرض دقيق النظر عميق الفكر ثاقب الراى وان يكون قد اوفى من الادب وثماره اكبر حظ واوفر نصيب وان لا يكون بعيدا من القياسات المنطقية وان يعرف مراتب ابناء زمانه ومقادير اهل عصره ولا يكون مشغولا بحطام الدنيا وزخرفها (١) وينقل الينا بعض المؤلفين روايات احيانا تدل على مقدار اهتمامهم بجمال اسلوب الكتب وحكم حسن مخبرها يحدثنا البيهقي انه لما استقامت المملكة لكسرى ابرويز وانقضى ما بينه وبين بهرام جوبين امر ان تكتب تلك الحروب والوقائع الى منتهاها ففصلت الكتبة ذلك وعرضته على ابرويز ولكنه لم يرض صدره فكتب غلام من اولاد الكتاب صدرا بليغا له عرضه على ابرويز فاعجبه ذلك وامر برفع درجته وتقديمه وتعظيمه (٢) وغير ذلك من الحكايات التي تظهر هذا الميل والرغبة .

البيان والبلاغة

يرى المتأمل في الكتب التاريخية الاسلامية ان المؤلفين يشيرون كثيرا ما الى

---

(١) جهار مقاله + ٢٧ + Christ. + ١٢٨

(٢) المحاسن والمساوى + ٤٨١

بلاغة بعض الآثار الساسانية من خطبة الفاتح ملك من ملوك هذه الاسرة او كتاب كتبها الى الرعية او رسالة بعثها الى ملك من ملوك الاطراف او ما شاكل (١) مما يظهر ان هذه الآثار كانت متصفة بهذه الصفة في المصادر الساسانية ويدل على انهم كانوا يعنون بالبلاغة عناية بالغة. وقد رأينا فيما ذكرناه عن كتاب « الملك خسرو وغلامه » ان فن البلاغة والبيان من الفنون التي كانت تتعلم في ذلك العصر ومما لا شك فيه ان الاسس البيانية والبلاغية كانت مدونة في كتب خاصة وكانت هذه الكتب معروفة في الادب البهلوي عند الادباء والكتاب ووصل قسم منها الى العرب والمسلمين. قال الجاحظ في البيان والتبيين في رده على الشعوبية في بلاغة العرب يقابل بين بلاغتي الفرس والعرب مفضلا الثاني على الاول « وفي الفرس خطباء الا ان كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فانما هو عن طول التفكر ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الاول وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الغرز عند اخرهم. وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال (٢) فالجاحظ يخبرنا هنا عن تآليف فارسية منظمة في البلاغة ويؤيد ذلك ما وصل الينا من اسامي الكتب المؤلفة في قواعد الكتابة ورسم البلاغة منها « كتاب في صناعة تحرير المراسلات وما يحسن في بدئها وفي ختامها وآداب المراسلات الرسمية (٣) ومنها كتاب يحدثنا عنه الجاحظ باسم تاروند »

---

(١) راجع الطبري الجملة الاولى في دولة الساسانيين وخاصة ص ٨٢٠ ٨٢٦ و ٨٤٦ / وعيون الاخبار ١٠ + ٩٦

(٢) البيان والتبيين ٣ + ٢٠

(٣) لم اعثر فيما كان بمتناولي من المصادر على كتاب بهذا الاسم وانما نقلت ذلك عن فجر الاسلام للاستاذ احمد امين + ١٣٥

قال حكاية عن الشعوبية " ومن احب ان يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب هارون " (١) وعد ابن النديم ضمن الكتب الفارسية المترجمة الى العربية كتاب عهد كسرى الى ابنه وقال انه كان يسمى عيون البلاغة (٢) مما يحملنا الى الظن بانه كان يحتوي على اصول البلاغة وقواعد البيان او انه كان مكتوبا باسلوب ادبي رائع حتى اطلق عليه هذا الاسم .

على انما نعرفه من البلاغة في العصر الساساني لا ينحصر بما ورد الينا من بعض اشارات المؤرخين واقوال المؤلفين او من اسماء كتب لم تصل الينا في اصولها . بل نعرف عن ذلك العصر حتى بعض الاراء البيانية ايضا وذلك بفضل ما حفظه لنا بعض الكتب العربية من مقتطفات الكتب البهلوية وقد رأيت ان انقل هنا ما جمعته من طيات هذه الكتب مما يمثل الاراء البيانية في الادب الساساني .

نقل ابن قتيبه عن كتاب التاج (وهو احد الكتب البهلوية التي ترجمت الى العربية) في امر الكتابة وآدابها عبارة طويلة وهي ما امر به ابرويز لكاتبه وتحتوي على وظائف الكاتب بالنسبة الى الملك والدولة وما يجب عليه ان يراعيه في شغله جاء فيها مما يتعلق بالنظم البيانية ما يلي + " واذا قرأت فلا تعجل واذا كتبت فلا تعذر ولا تستعين بالفصول فانها علاوة على الكفاية ولا تقصر عن التحقيق فانها هجنة بالمقالة ولا تلبسن كلاما بكلام ولا تباعدن معنى عن معنى . اكتم كتابك عن ثلاث . خضوع يستخفه ، وانتشار يشجه ، ومعان تقعد به ، واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول ، وليكن بسطة كتابك

---

(١) البيان والتبيين ٢ . + ١٠

(٢) الفهرست + ٣١٦

على السوقة بسطة ملك الملوك على الملوك ، ولا يكن ما تقول صغيرا فانما لكل الكاتب على مقدار الملك فاجعله عاليا كعلوه وفائقا كفوقه .

ولعلم ان جماع الكلام كله خصال اربع + سوء الثناء الشيء ، وسوء الخبر عن الشيء ، والامر بالشيء ، وحبرك عن الشيء ، فهذه الخلال دعائم المقلات ان التمس لها خامس لم يوجد وان نقص منها رابع لم تتم ، فاذا امرت فاحكم واذا سئلت فاوضح واذا طلبت فاسجح واذا اخبرت فحقق فانك اذا فعلت ذلك اخذت بحذ افير القول كله فلم يشتبه عليك وارده ولم يعجزك منه صادره " (١) ونقل صاحب الصناعتين في باب الوصل والفصل رأى الفرس في البلاغة وقال " قيل للفارسي ما البلاغة ، فقال معرفة الفصل من الوصل " (٢) وفي الباب نفسه ذكر في قواعد الفصل والوصل قول بزرجمهر وهو " اذا مدحت رجلا وهجوت آخر فاجعل بين القولين فصلا حتى تعرف المدح والهجاء كما تفعل في كتبك اذا استأنفت القول واكملت ما سلف من اللفظ " (٣) وفي كتاب التاج للجاحظ ان حاجة الملك من الكاتب " الى تحبير الالفاظ ومعرفة مخارج الكلام والايجاز في الكتب " (٤) ونذكر اخيرا مما عرف من هذا القبيل قول انو شيروان لبزرجمهر + متى يكون العبد بليغا فقال اذا وصف بليغا " (٥)

---

(١) عيون الاخبار ٠ ١ + ٤٦ ، وقد نقل ايضا صاحب نهاية الارب ٠ ٧ + ١١

(٢) الصناعتين + ٤٢٢ الطبعة الثانية ٠ مطبعة محمد على صبيح (مصر)

(٣) // ٤٢٥

(٤) التاج + ١٣٨

(٥) رسالة ابن المدبر ٠ رسائل البلغاء + ١٩٢

الفصـــــل الثـــانـــي
النظـــم الساسانيـــة ودولـــة الخلفـــاء

علاقات العرب بالفرس قبل الاسلام ، الديوان في العصر الاول ، الهرمزان، الخلافة والملك ، الاسلام والنظم المالية الايرانية ، نقل الديوان الى العربية ، بقاء الاصطلاحات الفارسية في الديوان، العناصر الفارسية في الدولة العباسية

التشابه والتباين بين الدولة الساسانية

عندما اخذ الاسلام بالتوسع والتجاوز عن الجزيرة العربية الى غيرها من البلاد بدأ المسلمون لاول مرة يشعرون انفسهم بحاجة الى نظم ادارية تدير شؤونهم وشؤون دولتهم الناشئة . واشتد هذا الشعور شيئا فشيئا كلما تقدم امر الاسلام وثرت واردات المسلمين الى ان اضطر القائمين بامر الدولة ان يعالجوا هذه المشكلة بما اتاح لهم من الوسائل وان يسدوا حاجتهم بما يلائم وحياة العرب الجديدة وان ذلك فاتحة عهد جديد له اهميته في تاريخ العرب والاسلام .

لم تكن تجارب العرب الشخصية في حقل الملك والسياسة كافية لادارة بلاد واسعة الاطراف ذات نظم ادارية راقية مشتملة على امم لها من حضارة العصر اكبر حظ ونصيب . فكان من الطبيعي ان يتجه المسلمون نحو الامم التي ملكت قبلهم في تلك البلاد وان يتبعوا انفسهم النظم المتبعة من قبل بقدر ما تيسر لهم تطبيقها مع روح الاسلام واندماجها فيه . ولست هنا في موقع الراغب في تحليل العلل التي جعلت الدولة الساسانية مثلا

اعلى في الحكم والسياسة عند المسلمين فقد اشرت الى بعض ذلك في مقدمة رسالتي هذه واما اريد ان اذكر القارئ بان اعجاب العرب بالدولة الساسانية وبسياستها لم يكن امرا قد نشأ في الاسلام بل ان العرب كانوا يستعظمون هذه الدولة منذ القديم .

تنتمي العلاقات السياسية بين العرب والدول الايرانية الى عصور قديمة جدا وقد اشتدت هذه العلاقات في دولة الاكاسرة وفي عهد كسرى انو شروان وكسرى ابروبز خاصة . فقد اسس ملوك بني ساسان دولة عربية في الحيرة وبسطوا سلطانهم منذ عهد سرى انو شيروان على اليمن وعندما كان النبي محمد قائما بنشر الدعوة الاسلامية كانت جيوش كسرى ابروبز تتوغل في ممتلكات الروم الشرقية كسورية وفلسطين واسيا الصغرى (٦١٢) وقد كان العرب الحجاز ايضا علاقات تجارية مع البلاد الايرانية في ذلك العصر فقد روى ان بزقل ومطيب من رؤساء قريش عقدوا معاهدة مع الدولة الساسانية سمحت هذه الدولة بموجبها ان تتردد قوافل قريش التجارية في ممتلكاتها وان ابا سفيان وصل في سنة ٦٠٦ او قبلها الى تيسفون عاصمة الاكاسرة على راس نفر من تجار قريش ومثل بين يدى كسرى (١) . وكان ذلك سببا في ان تحتك طائفة من العرب بالحضارة الفارسية في الحيرة او في تيسفون ولا شك انهم كانوا يقصون على غيرهم عند رجوعهم الى الجزيرة ما راوه من ازدهار المدنية الايرانية او ما سمعوه من ابهة ملك الاكاسرة وعظم سلطانهم. يحدثنا صاحب السيرة يقول " كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يوذى رسول الله (صلعم) وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس واحاديث رستم واسبنديار فكان اذا جلس رسول الله (ع) مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما اصاب من قبلهم

---

(١) Thiolaff. ص ٢١٣

من الامم من نقمة الله حلفه في مجلسه اذا قام ثم قال انا بالله يا معشر قريش احسن حديثا منه فهلم انا احدثكم احسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار (١) وعندما غلب كسرى ابرويز على الروم ، ان فريق من اهل مكه يفرحون بذلك وكان ذلك سببا لنزول آية " الم غلبت الروم ... الى وهم عن الآخرة هم غافلون (٢) وقد ورد في سبب تسمية العرب لقبائل ربيعة بربيعة الاسد ان ذلك كان لمجاورتهم الفرس وقد كان العرب يعطون شأن الفرس ويسمونهم الاسد (٣) ولا يخفى ما كان لذلك كله من اثر في نفوس العرب وفي اتجاه نظرهم عندما مكنهم الاسلام من تأسيس دولة عربية .

الدواوين في العصر الاول الاسلامي

اذا استثنينا ما بقيت من الدواوين الفارسية في الاسلام واستمرت في ذلك العصر كما كانت من ديوان الخراج وماشاكل كانت هناك دواوين اخرى بدأت في الاسلام وتسربت الى العرب من طريق اولئك الذين كان لهم إلمام بالنظم الساسانية كالذين اسلموا من الايرانيين وانتقلوا الى المدينة في العصر الاول او عمال الخلفاء في العراق حيث كانوا يحكمون في مركز الحضارة الايرانية امثال زياد بن ابيه الذي نسب اليه شيء كثير والحجاج وغيرهما من العمال . وعلى كل لم تظهر هذه الدواوين في بدء عهدها بهيئتها

---

(١) سيرة ابن هشام + ١٩١ و ٢٣٥ (طبع Wustenfeld)

(٢) الطبري الجملة الاولى ١٠٠٦

(٣) الدكتور عبد الوهاب عزام ، مجلة الرسالة السنة الاولى عدد ٢ ص ١٧

الكاملة فان المسلمون لم يتعتعوا في ذلك العهد بروي ادارية راقية توهلهم لقبول انظمة ادارية معقدة بل اخذوا هذه الانظمة في ابسط صورها ثم كملت شيئا فشيئا كلما تقدمت الدولة نحو العلم والحضارة وكثر اختبارات العرب في الحكم والادارة حتى وصلت الى اعلى درجاتها في العصر العباسي .

مضى عصر النبوة وابي بكر من دون ان يشعر العرب المسلمون بحاجة الى ثبت الاموال وضبط امورهم فان الدولة الاسلامية لم تكن تاسست بعد وكان الاسلام لا يزال دعوة دينية محضة . فلما تجاوزت الفتوحات الاسلامية الجزيرة العربية في عهد عمر واخذت الاموال تتدفق نحو المدينة رأوا ان ما كانوا عليه من الانظمة الساذجة في تقسيم الاموال وضبطها غير كاف لادارة تلك الارقام الضخمة من الامتعة والنقود التي كانت توسل اليهم من عمال الاطراف وكان ذلك سببا في انشاء اول ديوان في الاسلام . ولابن الطقطقي في هذا الموضوع بيان جامع بين الدقة والوضوح نقله هنا حرفيا لما فيه من كبير فائدة . قال في شرح كيفية الدواوين " كان المسلمون هم الجند وكان قتالهم لاجل الدين لا لاجل الدنيا وكان لا يزال فيهم دائما من يبذل شطرا صالحا من ماله في وجوه البر والقرب وكانوا لا يريدون على اسلامهم ونصرهم لنبيهم صلوات الله عليه وسلامه جزاء الا من عند الله تعالى ولم يفرض النبي (صلعم) ولا ابو بكر لهم عطاء مقررا ولكن كانوا اذا غزوا وغنموا اخذوا نصيبا من الغنائم قررته الشريعة لهم واذا ورد الى المدينة مال من بعض البلاد احضر الى مسجد رسول الله (صلعم) وفرق فيهم حسب ما يراه (صلعم) وجرى الامر على ذلك مدة خلافة ابي بكر فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة وهي خلافة عمر رأى ان الفتوح قد توالت وان كنوز الاكاسرة قد ملكت وان الحمول من الذهب والفضة

والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الاموال فيهم ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له يا امير المؤمنين ان للاكاسرة شيئا يسمونه ديوانا جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء واهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل فتنبه عمر وقال صفه لي فوصفه المرزبان ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء وجعل لكل واحد من المسلمين نوعا مقررا " (١)

ونجد في بعض المصادر معلومات اخرى تضيف الى ما ذكره ابن الطقطقى بعض التفاصيل والجزئيات ففي كتاب " نهاية الارب " في سبب وضع الديوان في ايام عمر ان ابا هريرة قدم بمال من البحرين فقال له عمر ماذا جئت به قال خمسماية الف درهم فاستكثره عمر وقال + اتدري ما تقوله قال نعم مائة الف خمس مرات فقال عمر اطيب هو فقال لا ادري فصعد المنبر وقال ايها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلا وان شئتم عددنا لكم عدا فقام اليه رجل فقال يا امير المؤمنين قد رأيت الاعاجم يدونون ديوانا لهم فدوّن انت لنا ديوانا " (٢) ويظهر من رواية رواها الصولى ان الرجل

---

(١) الاداب السلطانية + ١٠١ — ١٠٢ . وقد ذكر هذه العبارة قبلنا الاستاذ نيكلسن في كتاب تاريخ الادب العربي + ١٨٧

(٢) نهاية الارب . ٨ + ١٦٧ (طبعة دار الكتب بمصر)

الذى اشار عمر باتخاذ الديوان هو الهرمزان (١) وهو من مرازبة الفرس الذين كان بالمدينة في ذلك العصر . وروى ايضا في سبب وضع الديوان ان عمر بعث بعثا وعنده الهرمزان فقال لعمر هذا بعث قد اضيعت اهله الاموال ، فان تخلف رجل منهم واخل بمكانه فمن اين يعلم صاحبك فاثبت لهم ديوانا فسأله عن الديوان حتى فسّره له (٢) وقد روى ايضا غير ذلك من الروايات لا نطيل بذكرها . وان اختلفت هذه الروايات في بعض التفاصيل فانها تتفق جميعا في ان اول ديوان وضعها المسلمون كان في عهد عمر وهذا الديوان انما سمّي بديوان الجند والنفقات وان لم يكن ذلك تماما لانه اشتمل على اسماء الصحابة وطبقاتهم واعطيات كل واحد منهم وكذلك على الاموال التي كانت ترد على المدينة مما يعنينا العمال الى الخليفة بعد دفع نفقاتهم وصرّح اكثر الروايات بان رائد المسلمين في وضع هذا الديوان كان احد من مرازبة الفرس يسمى " الهرمزان " مما يدل على انه كان لشخصية الهرمزان اثر في نشوء الديوان في الاسلام وقد رأينا جديرا ونحن نتابع سير النظم الادارية في الاسلام ان نكتب كلمة عن هذه الشخصية لما كان لها من اثر في هذه الناحية من حياة العرب والمسلمين في عهد عمر ، فنقول +

الهرمزان

كان الهرمزان من قواد يزدجرد آخر الملوك الساسانيين ومن اصحاب المناصب الرفيعة في هذه الدولة وقد اشتهر في تاريخ الفتوحات

---

(١) راجع ادب الكتاب للصولي (طبعة مصر سنة ١٣٤١) ص ١٩٠ وقابله بما ذكر فيسى نهاية الارب ٨٠ + ١٩٧ ذيل (٤)

(٢) نهاية الارب ٨٠ + ١٩٧ . ادب الكتاب + ١٩٠

الاسلامية بمعارك كبيرة وقعت بينه وبين المسلمين في القادسية ثم في "جلولاء" ثم في "تستر" من مدن خوزستان حيث بذل جهودا جبارة للدفاع عن هذه الناحية امام ضغط المجاهدين من المسلمين ولكنه لم يستطع الثبات اخيرا واسر حينما فتح العرب مدينة تستر فبعثوا به الى المدينة حيث اسلم بعد ان استأمن وبقي عندهم حتى قتل بعد مقتل عمر وروي ان عمر قصد ان يقتله لما جاء به الوفد الى المدينة ولكنه نجى بحيلة

ينتمي الهرمزان الى احدى البيوتات السبعة الممتازة في العصر الساساني وكانت هذه البيوتات السبعة التي تعد البيت الساساني احداها تتألف من عائلات ايرانية قديمة توارثت بعض المناصب في الدولة منذ القديم حتى قبل الدولة الساسانية . وكانت تتمتع هذه البيوت باستيازات وحقوق خاصة اهمها ان كل بيت منها كانت تملك مقاطعات في ناحية من نواحي المملكة يتوارثونها وكانت مقاطعة الهرمزان " مهرجا نقذف " وكور الاهواز " في خوزستان . (١)

ويظهر ان الهرمزان اكتسب مكانة بين المسلمين بعد ان اسلم يحدثنا البلاذري انه عندما فرض عمر لبعض دهاقنة الفرس في الفيء كدهقان نمر الملك ودهقان الفلاليج وغيرهما من الدهاقنة واصحاب البيوت وكتب لكل منهم الف فضل الهرمزان فوفوض له ألفين (٢) بل ويدل بعض الحوادث انه كان يتمتع بمنزلة رفيعة عند اشراف العرب فيقول الاصطخري ان له الى آل

---

(١) Christensen ص ٨ وبعد

(٢) فتوح البلدان ٤٥٧ و ٤٥٨ ، ومن اراد التوسع في الهرمزان فليرجع : البلاذري ، ٣٨٠ و ٣٨١ ، ابن الاثير ٢ : ٤٢٣ — ٤٣٠

ابي طالب صغير (١) مما يدل على مكانته في القوم .

قلنا ان الهرمزان كان ينتمي الى البيوت الفارسية الشريفة وقد رأينا في الفصل السابق ان اولاد الاساورة واصحاب البيوت كانوا يثقفون ثقافة راقية اضف الى ذلك ان الهرمزان كان من اصحاب المناصب الهامة في الدولة الساسانية ومن له معلومات واسعة عن نظم الحكم وقوانين السياسة فكان من الطبيعي وهو بالمدينة والدولة الاسلامية في حالة النشوء ان يستفيد المسلمون من تجاربه بقدر ما اتيح لهم ذلك . وقد رأينا اثره في وضع اول ديوان في الاسلام ورون البيروني رواية يظهر منها انهم كانوا يرجعون اليه في كل امر دهمهم من هذا القبيل فقد ذكر في سبب نشوء التاريخ في الاسلام انه رفع الى عمر صك محله شعبان فقال عمر اي شعبان الذي نحن فيه او الذي هو آت ثم جمع اصحاب رسول الله (٢) فاستشارهم فيما دهمه من الحيرة في امر الاوقات فقالوا يجب ان نتعرف الحيلة في ذلك من رسم الفرس فاستحضروا الهرمزان واستعملوه ذلك (٣) فشرح لهم الهرمزان كيفية استعمالهم للتاريخ وكذلك ما عليه الروم .

هكذا كان نشوء الديوان والتاريخ في الاسلام وهكذا اظهر تباشير النظم الادارية في الاسلام . وقد بقي الهرمزان كمسلم في المدينة في عهد عمر كله

---

(١) مسالك الممالك + ١٤٠

(٢) تاريخ سني ملوك الارض لحمزة الاصفهاني + ٥ و ٦ الاثار الباقية عن القرون ٣٠

(طبع ساخاو)

(٣) فتوح البلدان + ٢٨١

ولكنه اتهم بمسالمة ابي لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة على قتل عمر فقتل لذلك. قال البلاذري في خبر مقتله ان عبيد الله بن عمر قال له يوما " امض بنا الى فرس لي فمضى وعبيد الله خلفه فضربه بالسيف وهو غافل فقتله (١). وذكر ابن النديم ضمن الكتب التي الفها المدائني في الفتوح كتابا باسم " خبر الهرمزان " (٢) ولكن لم يصل الينا هذا الكتاب .

الخلافة والملك

توفي عمر والاسلام منتشر في بلاد واسعة الاطراف . وقد بدأت هذه البلاد تتوحد شيئا فشيئا كلما تقدم الزمان وتمكن من قلوب المسلمين . واخذت الحياة العربية تتقدم كلما زاد تلاؤم البلدان المفتوحة واختلاط الامم الاسلامية وكان من نتائج هذه الحركة في الحياة الاجتماعية حركة اخرى في الحياة الادارية لتؤهل القائمين بامور الاسلام ان يحكموا على بلاد كثيرة وامم مختلفة بدأت تؤلف كتلة واحدة . فلم يكن يكفي لذلك ما كان عليه الراشدون من النظم الساذجة ما لم تقارن باصول ادارية اخرى تناسب الحالة الاجتماعية فكانت هناك اضطرابات وكانت هناك حروب نتج عنها انتقال الحكم من على الى معاوية ان شئت فقل انتقال الخلافة الى الملك . لم تقبل العقلية العربية بسهولة ومن دون مشقة هذا التحول في امر الخلافة الذي كاد ان يكون جوهريا تدلنا على ذلك الجهود العظيمة التي بذلها معاوية في سبيل اخضاع المشاكل بكل ما كان لديه من الوسائل . وتدلنا الحوادث التاريخية التي حدثت في مسئلة

(١ فتوح البلدان + ٣٨١

(٢) الفهرست + ١٠٣

البيعة ليزيد وما صرفه معاوية من المال والدهاء في ذلك الامر حتى رفق الى جعل الملك موروثا في بيته واوجد بذلك نظام ولاية العهد واطبقه مهما امكن على المبادئ الاسلامية .

وكان لهذا التحول في امر الخلافة اثر غير قليل في تقدم النظم الادارية وتكميل امر الدواوين ففي ذلك العصر استعملت في الدولة الاسلامية دواوين اخرى كانت لها اهمية كبيرة في ادارة امور الدولة الاموية وبسط سلطانهم على البلاد الاسلامية .

فمن اهم هذه الدواوين ومن اكابرها ديوان الزمام والخاتم وهو كما مر ذكره سابقا في الفصل الاول من هذا الكتاب " ديوان يديه نواب فاذا صدر توقيع من الخليفة يأمور من الامور احضر التوقيع الى ذلك الديوان واثبت نسخته فيه وختم بخيط وختم بشمع .. وختم بخاتم صاحب ذلك الديوان (١) قال البلاذري نقلا عن المدائني ان زياد بن ابي سفيان اول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعله (٢) وكان زياد يتولى عمل فارس مدة غير قليلة ونسب بعضهم ذلك الى معاوية وعده من مخترعاته (٣) وقد ذكر الصولي في سبب اتخاذ معاوية ديوان الخاتم ما يلي وكانت الخوارج في خزائن الملوك تدفعها الى الوزراء فاطرد الامر على ذلك حتى ملك بنو اميه وانفرد معاوية ديوان الخاتم وولاه عبيد ابن اوس الغساني وسلم الخاتم اليه وكان على قصه لكل عمل ثواب " وكان سبب ذلك انه كتب لعمر

---

(١) الفخري في الاداب السلطانية + ١٣٠

(٢) فتوح البلدان + ٤٦٤

(٣) الفخري + ١٣٠ وادب الكاتب للصولي + ١٤١

بن الزبير الى بعض عماله بمائة الف درهم فوق عمر الهاء وجعلها ياء واحذ مائتي الف درهم فلما مرت بمعاوية ذكر انه لم يصله الا بمائة الف درهم فاحضر العامل الكتاب فوقف معاوية على الامر فاتخذ ديوان الخاتم (١)

ومن الدواوين التي استحدثت في الدولة الاموية وكان لبعض خلفاء هذه الاسرة عناية بها ديوان البريد ٢) وقد نسب ذلك ايضا الى معاوية لوصول الاخبار بسرعة (٣) وقد اتخذ هذا الديوان اقتداء بما اشار عليه به عماله في العراق ويروى انه لما استقرت له الخلافة وخلا من المانع اراد ان يضع البريد لتسرع اليه اخبار البلاد من جميع اطرافها فامر باحضار رجال من دهاقين الفرس واهل اعمال الروم يعرفهم بما يريد فوضعوا له البريد ، وبعضهم ينسبون ذلك الى زمن عبد الملك بن مروان وقيل ان عبد الملك هو الذي احكمه (٤) وقد تقدم امر الانشاء في ذلك العصر حتى تأسس ديوان الانشاء ايضا وكان يعد من الدواوين الهامة .

الاسلام والنظم المالية الايرانية

هناك عوامل عديدة دعت المسلمين ان يقروا النظم المالية التي سنها الساسانيون والتي اصلحها فيروز بن قباد وبعده كسرى انو شيروان والتي كانت معمولا بها في كل البلاد التابعة للدولة الساسانية قبل الفتوح ، وقد وجد العرب في تلك البلاد نظما مالية معقدة اضطروا معها ان يتابعوها وان يتركوا الطرق التي

---

(١) ادب الكاتب + ١٤٣ (٢) البريد ان يجعل خيل مضمرات في عدة اماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا وكذلك يفعل في مكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة واما معناه اللغوي فالبريد هو اثنا عشر ميلا (الفخري + ١٢٩

(٣) الفخري + ١٢٩ (٤) صبح الاعشى ٠ ٤ + ٣٦٨ وتاريخ التمدن الاسلامي لزيدان ١٠ + ٢٢٠ — ٢٢١

~~(٤) ابن الاثير ٠ ٢ + ٠ ٧~~

كانوا يسلكونها من قبل وقد كانوا المسلمون يقسمون الاراضي المفتوحة قبل فتح العراق ولكنهم عندما فتحوا ارض السواد تعذر عليهم ذلك لما وجدوا فيها من انظمة ورسوم جعلت من العسير عليهم تفكيكها وانفصال بعضها عن بعض ولذلك منع عمر من قسمتها واقروها حبسا يولونها من اجمعوا عليه بالرضا (١) وقد قال الاصطخري في عهده " وليس في سائر دواوين الاسلام ديوان هو اصعب عملا واكثر انواعا من ديوان فارس لاختلاف رسومها وتقارب الاخوجة على اصناف زروعها واختلاف ابواب اموالها وتشعب الاعمال على المتقلدين لها "(٢)

لم يكن لاستجباء الاراضي عند المسلمين طريقة واحدة بل كانت تختلف احكام الاراضي حسب اختلاف الموارد فالارض في الاسلام على انواع بعضها ارض العشر والبعض الآخر ارض الخراج ولهم في ذلك قوانين عامة ولم يكن الخراج واحداً في كل الموارد الا انه على العموم كان مبنيا على التعديل والمقاسمة كما كانت عليه جباية التام فلما فتحت العراق اقتدى عمر بن الخطاب بنفس الوضايع التي كانت معمولا بها هناك وهي الوضايع التي قام بوضعها قباد بن فيروز (٤٨٧ — ٤٩٨) واكملها بعده كسرى انو شيروان بعد ان تم مسح الاراضي وهذه الوضايع لم تكن بالمقاسمة بل على المساحة فقد وضع انو شروان شيئا معلوما على انواع المحاصيل الزراعية وهي الحنطة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون والارز حسب مساحة الارض التي زرعت فيها وقد اقرها عمر (٣) واتبع

---

(١) ابن الاثير ٢ : ٥٠٧

(٢) مسالك الممالك + ١٤٦

(٣) الطبري الجملة الاولى + ٢٦٢٣ — و ابن الاثير ٢ : ٢٣١

نفس الطريقة في النواحي الاخرى من الاراضي المفتوحة ، فما ورد من هذا القبيل ما روى من انه امر عثمان بن حنيف بمساحة ارض فمسحها ووضع على كل جريب من الكرم والشجر الملتف والنخل وقصب السكر والرطبة والقمح والشعير وضايع خاصة وظلت هذه الطريقة متبعة في العراق الى ايام المنصور العباسي الذى عدل الى المقاسمة نظرا لتغير الاسعار (١)

وهناك ناحية اخرى من النواحي المالية التي استمرت في الاسلام بهيئتها الفارسية ودامت طوال سنين عديدة وهي النقود والمسكوكات . فلم يبدأ العرب المسلمون بضرب السكة الا في النصف الاخير من القرن الاول وانما كانوا يتعاملون بالنقود التي كانوا يتعاطون بها من قبل اى بالنقود الايرانية في البلاد الشرقية الاسلامية وبالنقود الرومانية في الشام والبلاد الغربية . ولم يكن العرب يفكرون بضرب نقود غيرها فالدراهم البغلية التي كانت رائجة حتى ايام عبد الملك هي التي ضربها راكب البغل لعمر بن الخطاب وهي ضربة على طريقة الدراهم الكسروية مكتوب عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية لنيشتويك (نوش خر) اى كل هنيئا . (٢)

ونتج عن ذلك كله ان الناحية المالية في الشرق الاسلامي اى في كل البلاد التي كانت تؤلف

---

(١) جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي . ١ + ٢١٣

(٢) الحاسن والمساوى . ٥٠٢ . راجع ايضا + ٢٠١

الامبراطورية الساسانية ظلت فارسية محضة لا في اصولها فقط بل فيها وفي مظاهرها الخارجية ايضا فكان ديوان الخراج وما يتبعها من الدواوين التي لها علاقة بالامور المالية باللغة الفارسية يديرها نفر الطبقة من الكتاب الذين كانوا يديرونها في عهد الاكاسرة ويتبعون فيها نفس الانظمة نفس الانظمة المتبعة فيها من قبل. وكان في عهد الحجاج وعبد الملك حيث بداء العرب بنقل لغة الديوان الى العربية وضرب نقود اسلامية فضرب عبد الملك اول سكة اسلامية وقام بنقل ديوان الشام من الرومية الى العربية كما ان الحجاج نقل بدوره ديوان العراق من الفارسية الى العربية . نقله له صالح بن عبد الرحمن (وكان عبد الرحمن من سبي سجستان) بعد ان قتل كاتبه زاد الفرزوخ في فتنة ابن الاشعث وكان صالح يخط بين يديه بالعربية والفارسية (١)

بعد نقل الديوان

نقل ديوان العراق الى العربية في حدود سنة ٨٠ بعد الهجرة ولكن لم يعم هذا النقل جميع الدواوين الموجودة في المناطق الايرانية بل بقي قسم منها باللغة الفارسية طيلة الخلافة الاموية. يحدثنا ابن رسته وهو من اهل اصفهان ومن عمال ديوان الخليفة في اواخر القرن الثالث ان اول من كتب بالعربية في ديوان اصبهان سعد بن اياس وهو كاتب عاصم بن يونس عامل ابي مسلم صاحب الدولة (٢) اي ان ديوان اصبهان بقيت فارسية في خلافة الامويين كلها . ويظهر من الفخر ي ان الكتاب القائمين بامر الديوان بمرد كانوا لا يزالون في عهد سويدجد محمد بن يزداد من المتخرجين من الكتاب الفارسية والمتعلمين الاداب الفارسية (٣) ويصف المقدسي السنة الخراسانيين او لهجاتها المختلفة الفارسية

(١) الفهرست ١ ٢٤٢ وادب الكتاب للصولي : ١٩٢

(٢) الاعلاق النفيسة : ١٩٦

(٣) الفخري : ٢٧٣

ويذكر ان لسان البخاريين دربة يقول في علة هذه التسمية " وانما يسمى ما جانسها دريا لانهما اللسان الذى يكتب به رسائل السلطان وترفع بهما اليه القصر واشتقاقه من الدر وهو الباب يعني انه الكلام الذى يتكلم به على الباب " (احسن التقاسيم : ٣٣٥)

على ان الدواوين حتى بعد نقل لغتها الى العربية لم تخل من عناصر فارسية ظلت بارزة فيها في كل ادوارها . فقد اضطر العرب ان تبقى بجانب النظم الفارسية المتبعة في هذه الدواوين بعض هذه العناصر التي كان لا بد منها في ادارة هذه البلاد . فمن هذه العناصر التقويم الايراني الذى بقي مستعملا في الدواوين المالية العربية . فان السنة الايرانية كانت شمسية تجرى مع فصول السنة التي عليها مدار الخراج حينما كانت السنة العربية قمرية لم تصلح لان تستخدم في امر الخراج وغيره مما يرتبط بالفصول وسير الشمس .

ولم يكن التقويم الايراني الذى ظل اساسا لديوان الخراج فحسب بل كانت الشهور الفارسية ايضا مستعملة في هذا الديوان باسمائها وتواليها كما ذكر ذلك البيروني في الشهور المعتضدية (١) على ان ايام الفارسية ايضا كانت تستعمل في بعض الدواوين كما ذكر المقدسي ذلك عن ديوان فارس (٢) ففي التقويم ايرانيون من اتقنى اثرهم كالمغد واهل خوارزم ودماوند اهل طبرستان الخ لم يستعمل الاسبوع بل كان لكل يوم من الشهر اسم خاص قال البيروني ان استعمال الاسبوع خاصة اهل المغرب وخاصة اهل الشام وحواليه بسبب ظهور الانبياء فيهم واخبارهم عن الاسبوع الاول وبدو العالم فيه (٣) وقال المقدسي عند وصفه لفارس فيما اشرنا اليه انفا " ولكل يوم من الشهر اسم عليها تاريخات الدواوين مثل ايام الجمع بسائر الاقاليم" (٤) ثم يعدد تلك

الاسامي الفارسية المستعملة في الدواوين.

(١) الآثار الباقية ٦٨ (٢) الآثار الباقية ٦٩ (٣) احسن التقاسيم ٤٤ (٤) احسن التقاسيم : ٤٤١

وكان لبقاء التقويم الايراني في ديوان الخرفة اثر كبير في استمرار بعض العادات والرسوم الايرانية في الاسلام . فقد كانت الخلفاء يفتتحون الخراج في النيروز مثل الاكاسرة وكان النيروز من اعظم الاعياد الفارسية وكان الايرانيون يحتفلون بهذا العيد منذ قديم تاريخهم احتفالا رائعا فاصبح ذلك سببا لان يحتفظ هذا العيد وبعض الاعياد الفارسية الاخرى كعيد المهرجان والمدن باهميتها في الاسلام .

فلما دخل العصر العباسي احتفلت الخلفاء وحاشيتهم بالنيروز والمهرجان كاحد الاعياد العظيمة وراعوا فيهما اكثر العادات والرسوم الفارسية المتبعة فيها قبل الاسلام فكثر التهادي وما اتخذ من الصائد في تهنئة النيروز والمهرجان بحيث الحسن بن الحسن الاصفهاني من مجموع هذه الصائد كتابا وسماه (اشعار السائرة في النيروز والمهرجان (١) ويظهر من قراءة الكتب الادبية العربية مقدار العناية التي كان يبذلها العباسيون وخاصة كتابهم ودرائهم للاحتفال بهذه الاعياد . قال القلقشندي في التهنئة بالنيروز " انه من اجل اعياد الفرس وكان للكتاب به اهتمام في اوائل الدولة العباسية بالغوا جريا على ما كان عليه الفرس من قديم الزمان (٢) وذكر قسما من رسالة مكتوبة لتهنئة النيروز جاء فيها " هذا يوم تسمو له العجم ويستعجم في العرب تشريفا له واعترافا بفضله واقتداء باهله واخذا بسنتهم فيه فليهن (٣) الخلفاء الدولة في العز (منزلا) بحيث لايرام ولا يضام ولا ترقى اليه الاماني ولا يطمع في مساواته السادة ولا تنعم بعد تصرم الدولة على حميد اثارها وجميل الذكر فيما اعلام تضرب بهم الامثال وترهو بايامهم الايام واثارهم تقتفى واعيادهم تنتظر يتاهب لها قبل الاوان ويعرف فيها اثر الزمان (٤)

(١) المحاسن والاضداد ٢٤١ (٢) هكذا في الاصل والكلمة محرفة (٣) صبح الاعشى ٩ : ٤٨ ~~(٤) الاثار البلقية ٣٣~~
(٤) صبح الاعشى ٩ : ٤٨

ولم يكن استعمال التواريخ الفارسية منحصرا في الديوان . فنحن نعلم انه عندما نقلت الكتب النجومية الفارسية الى العربية وظل بعضها اساسا للنجوم في الاسلام ومعولا لبعض اكابر المنجمين كابن معشر الفلكي وامثاله ظل التاريخ المستعمل في الازياج العربية وغير العربية تاريخ ملك يزدجردين كسرى ابرويز وهو كما ذكر البيروني على سنى الفرس غير المكبوسة قال " وقد استعمل في الازياج لسهولة العمل به (١) ويظهر من بعض المصادر ان الكتاب كانوا يعتمدون عامة على اصطرح الفرس في النجوم (٢) ولا غرو من ذلك بعد ان عرفنا ان النجوم كان يرتبط في العصر الساساني بعلم الهندسة وحفر قنوات المياه (٣) لا يخفى ما لذلك من علاقة بديوان الخراج .

الاصطلاحات الفارسية

ومن العناصر الفارسية التي ظلت بارزة في الدواوين قسم كبير من الاصطلاحات الديوانية التي بقيت باللغة الفارسية وشاع استعمالها بين الكتاب وعمال الدواوين واصبح بعضها جزءا للغة العربية .

---

(١) الاثار الباقية : ٣١

(٢) معجم البلدان ١ - ٢٧

(٣) مفاتيح العلوم ١١٨

ونذكر فيما يلي قسما من هذه الاصطلاحات التي كانت مستعملة في ايام الخوارزمي (ابي عبدالله) المتوفي سنة ٣٨٧ للهجرة وذكرها في كتابه مفاتيح العلوم.

الاوارج = معرب من كلمة (اواره) الفارسيه ومعناه المنقوص وهو الكتاب الذى كان ينقل اليه من الخانون (١) ما على انسان انسان ويثبت فيه ما يوءديه دفعة بعد اخرى الى ان يستوفي ما عليه (٢) هذا في ديوان الخراج اما في ديوان الانشاء فالاوارج يطلق على ما يثبت في اخر الكتاب من نسخة عمل او كتاب اخروارد او صادر (٣).

الرزنامج = معرب من كلمة (روزنامه) تفسيره كتاب اليوم وهو كتاب يكتب فيه ما يجرى كل يوم من الخراج او نفقة او غير ذلك (٣)

الفهرست = ذكر الاعمال والدفاتر الموجودة في الديوان وقد يكون لسائر الاشياء (٤)

الانجيذج = وهو من الدفاتر التي كان يستعملها كتاب العراق خاصة تفسيره الملفوظ . لفظة فارسية معربة .

الاوشنج = تفسيره الملوى والمجموع لفظة فارسية معربة (٤)

الصك = بمعنى الوثيقة معرب (چاك) وهو بالفارسية كتاب القاضي (٥) وهو عمل يعمل لكل طمع يجمع فيه اسامى المستحقين وعدتهم ومبالغ ما لهم ويوقع السلطان في اخره باطلاق الرزق لهم

---

١) الخانون يعد كما يظهر الديوان الكبير الذى كان يثبت فيه مجموع الخراج
٢) مفاتيح العلوم ٣٢ (٣) مفاتيح العلوم ٥٠ (٤) مفاتيح العلوم ٣٩ (٥) شفاء الغليل ١٢٣٠

(مفاتيح : ٣٨)

والصك ايضا يعمل لاجور الساربانيين (جمع ساربان فارسية بمعنى الجمال) والجمالين ونحوهم (١)

الدستور - نسخة الجماعة المنقولة من السواد (١) قال الدينوري في ذكر الوضائع التي وضعها كسرى انوشروان وانه كتبها في ثلاث نسخ نسخة لديوانه ونسخة لديوان الخراج ونسخة دفعت الى القضاة في الكور ليمنعوا العمال من اعتداء ما في الدستور الذي عندهم (٢)

التاريج - قيل لفظة فارسية ومعناه النظام لانه كسواد يعمل للعقد لعدة ابواب يحتاج الى علم جملها ويظن الخوارزمي انه تفعيل من الاوان الذي مر معنا انفا (٣)

الدووزن . ذكر الماسح وسواده الذي يثبت فيه مقادير ما يمسحه من الارضين (٤)

الجزية - معرب كزيت " وهو الخراج بالفارسية (٤)

الطسق . معرب (تسك ، وهو الاجرة في اللغة وفي اصطلاح الديوان وظيفة توضع على اصناع الزروع لكل جريب (٥)

الاستان المقاسمة مؤلفة من لفظتين احديهما فارسية (استان) بمعنى المقاطعة والثانية عربية واستان المقاسمة هو اقطاع يقطع السلطان رجلا ارضا فتصير له ربيعها (٥)

التخمين - الخرص للخضر مشتق من خمانا (همانا) وهو بالفارسية لفظة شك وظن (٦)

الطسوج - معرب تسو) وهو ربع الشعير او جزء من اربع وعشرين جزء (٧) من اصطلاحات المساحة

---

(١) مفاتيح العلوم ٣٩ (٢) الاخبار الطوال ٧٣ (٣) مفاتيح العلوم ٣٧

(٤) مفاتيح العلوم ٣٩ (٥) مفاتيح العلوم ٤٠

(٦) مفاتيح العلوم ٤١ و (٧) مفاتيح العلوم ٤١ راجع ايضا برهان قاطع ١ - ٣٦١

الدانق ـ معرب (دانك) وهو اربعة طساسيج او جزء من ستة اجزاء

البريد ـ كلمة فارسية واصلها (بريده دنب) اى مجذوب الذنب وذلك ان فرسان البريد مجذوفة الاذناب فعربت الكلمة وخففت وسمى الجمل بريدا والرسول الذى يركبه بريدا والمسافة التي بعدها فرسخان بريد (١)

الهندسة ـ قال الخوارزمي " هذه الصناعة تسمى باليونانية " جومطريا " وهي صناعة المساحة واما الهندسة فكلمة فارسية معربة وفي الفارسية " اندازه " اى المقادير قال الخليل المهندس الذى يقدر مجارى الدفى ومواضعها حيث تحتفر وهو مشتق من الهندسة وهي فارسية فصيرت الزاى سينا في الاعراب لانه ليس بعد الدال زاى في كلام العرب = وقال بعضهم هي اعراب (اندیشه) اى الفكرة وليس ذلك بصحيح فان في بعض كلام الفرس . اندازه بالختر مارى بايد " اى الهندسة يحتاج اليها مع احكام النجوم وقد يقع هذا الاسم على تقدير المياه كما قال الخليل لانه نوع من هذه الصناعة وجزء لها (٢)

التاريخ ـ وردت الرواية على انها كلمة فارسية اصلها (ماه روز) قال الخوارزمي وهذا اشتقاق بعيد الا ان الرواية جاءت به (٣)

ومن المصطلحات الفارسية غير ما ذكره الخوارزمي

الفرسخ معرب فرسنك (٤)

---

(١) مفاتيح العلوم ٤٢ (٢) مفاتيح العلوم ١١٧ (٣) مفاتيح العلوم ٥٠ (٤) برهان قاطع ٢ـ ١٠٠١

الفرانق ـ معربة من الفارسية (پروانة) وهو الحامل للخرائط ويقال خادم . من اصطلاح ديوان البريد واستعمل ايضا فروانق (١)

الاسكدار ـ لفظة فارسية وتفسيره (ازكودار) اى من اين تسلك وهو مدى يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والنافذة واسامى اربابها (١) هذا في ديوان البريد اما في ديوان الانشا فعبارة عن مدى يكتب فيه جوامع الكتب المنفذة للختم (٢)

فيوج = جمع فيج وهو معرب (پيك) الفارسية وهو من يحمل البريد

ديوان الكنتبزود في ديوان الماء وهو معرب من (كاست وفرود) اى النقصان والزياده وهو الديوان الذى يحفظ فيه خراج كل من ارباب المياه وما يزيد فيه وينقص ويتحول من اسم الى اسم فاما ديوان الماء بها فانه يحتفظ فيه بما يملكه كل منهم من الماء وما يباع وما يشترى منه (٣)

البَسْت ـ قياس تصالح عليه اهل مرو وهو مخرج للماء من ذهب طوله شعير وعرضه شعير (٣)

من اصطلاح ديوان الماء .

الفنكال ـ هو عشرة البست من اصطلاح ديوان الماء (٣)

الشاذروان اسم يوثق حوالى العناطر ونحوها (٣)

---

(١) مفاتيح العلوم ٤٢ والمسالك والممالك لقدامة بن جعفر ١٥٤

(٢) مفاتيح العلوم ٥٠ (٣) مفاتيح العلوم ٤٥

الكورة - معرب خورة وقد كانت فارس منقسمة الى خمسة كور (خورة) (١)

الرستاق - معرب (روستا) بمعنى القرية (٢)

الشمن - معرب (شماره) اى الحساب وهو الدار الذى يجبى فيها الخراج (٣)

سفتج - جمع سفتجة فارسية معربة وهي الخطوط واصلها ان يكون لواحد ببلد متاع عند رجل امين فياخذ من اخر عوض ماله ويكتب له خوفا من غائلة الطريق (٤)

مهرن - صحيفة معرب (مهره) جمع مهارن قال الخفاجي تكلموا به قديما وقد يخرب بكتاب العهد (٥)

مهندز - الذى يقدر مجارى القنى والابنية واصله مهندز فابدلوا زايه سينا (٦) وهو مشتق من (اندازه)

الموانيد - وهو جمع (مانده) بمعنى بقايا الخراج التي تبقى على العمال او غيرهم من سنة ماضية (٧)

في العصر العباسي

كان لقيام الدولة العباسية على انقاض الخلافة الاموية اثر كبير في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية فكان من شؤون الدولة الاسلامية بحيث جعلت العصر العباسي ذا صبغة خاصة تميز بها عن العصور المتقدمة. وقد ظهر هذا الاثر في الناحية الادارية بشكل بارز فمنذ بدء هذه الدولة اخذت الانظمة الادارية تتحول بسرعة والدواوين تتقدم بخطى واسعة

---

(١) برهان قاطع ٢ - ١١٦٥ (١) برهان قاطع ١ - ٦٦٥ (٣) اخبار الطوال ٧٣ (٤) شفاء الغليل ١١٦

(٥) شفاء الغليل ٢ ١٨ (٦) شفاء الغليل ٧/١٨٣) شفاء الغليل ١٨٤ والتاج في اخلاق الملوك ١٤٧

فاضيفت الى الدواوين الموجودة في العصر الاموي دواوين اخرى وتفرعت الموجودة منها الى شعب وفرق اختص كل فرع منها بادارة قسم خاص من امور الدولة . فمن الدواوين التي نقلت الى بغداد بعد اتمام بنائها في عهد المنصور ديوان الرسائل والزمام والخاتم والجند والحوائج والاختام وطلب العامة والنفقات (١) وعندما تم بناء بغداد سنة ١٤٩ هـ نقل كل من الدواوين المنقولة اليها ديوان الخراج والضياع والرماع والجند والخاصة والبريد والنفقات والطلب (٢) وليس هذا كل الدواوين الموجودة في ذلك العصر بل كانت هناك دواوين اخرى تناسب مع ضخامة ملك العباسيين وتقدم حضارتهم . وقد ساد في هذه الدواوين نظام حاسم وترتيب فيه كثير من الدقة والكمال . واضيف على الدواوين ومنصب الكتابة وعلى راسها منصب اخر يشرف على الكل ويسيطر على الجميع وهو منصب الوزارة الذي قام في الدولة العباسية مقام منصب " بزرجفرمدار" في الدولة الساسانية بل هو نفسه وكان له في العصر العباسي نفس الحدود والنفوذ الذي كان له في عهد الاكاسرة ولعب في هذا العصر دورا هاما في حياة الخلافة وبقي له اثر عميق في تاريخ العرب والاسلام .

والواقع ان انتقال الخلافة من الامويين الى العباسيين لم يكن انتقال الحكم من اسرة الى اسرة فقط بل هو تحول للدولة الاسلامية من مرحلة الى مرحلة ومن طور الى طور . وقد اثر في ذلك عوامل عديدة بعضها ظاهرة وبعضها خفية ليس هنا موضع ذكرها . واذ نحن نشير الى بعضها فيما يلي فليس ذلك الا تتبعا وبقدر ما يمس موضوعنا وهو ماله علاقة بتقدم الانظمة الادارية في ذلك العصر وظهورها بمظهرها الكبرى في جميع نواحيها .

---

(١) كتاب البلدان لليعقوبي ٢٤٠

(٢) كتاب البلدان لليعقوبي ٢٦٧

مما لا شك فيه ان من العوامل الفعالة في هذا التحول هو تقدم الخلافة الاسلامية نحو الاستقرار والمركزية لا في الناحية السياسية فقط بل فيها وفي غيرها من النواحي التي لها اثر في توحيد نظام الدولة وتمركز الحكم. لم يكن الاسلام في بدء عهده الا دعوة دينية ولم يتعد ذلك الى عهد الراشدين الى الملك والادارة ولذلك ابقى هؤلاء الخلفاء في كل قسم من البلاد المفتوحة ما كانت متبعة من قبل من النظم والقوانين كما رأينا ذلك فيما مر معنا وظلت البلاد تستمر بحياتها الادارية السابقة. واما في عهد الامويين وان انقلبت الخلافة الى الملك في الواقع واخذ خلفاء هذه الاسرة يقلدون الاقدمين في الانظمة السياسية الا ان البلاد المفتوحة لم تتوحد بعد تحت نظام واحد ولم تبلغ الامم المختلفة التي اعتنقت الاسلام الى تلك الدرجة من الائتلاف والتداوم التي هي من ضروريات توحيد الحكم والادارة.

اضف الى ذلك ان النزعة البدوية كانت لا تزال بارزة في الخلافة الاموية ولم تكن الحياة العربية في ذلك العصر لتلائم النظم الدقيقة المعقدة التي هي من خصائص التحضر وزخارفها. قال جرجي زيدان في ذلك ما يأتي "فلما حكم الامويون ومالوا الى التنعم كان الفرس احسن مثال لهم. واراد غير واحد من امراء العراق تقليدهم في ذلك ولكن البداوة كانت تتغلب عليهم فيرجعون. ذكروا ان الحجاج بن يوسف اولم لختان احد اولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال "اخبرني ياعظم صنع شهدته" فقال شهدت ايها الامير بعض مآدب كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعا احضر فيه صحاف الذهب على اخونة الفضة اربعا على كل واحد وتحمله اربع وصائف ويجلس عليه اربعة من النمار فاذا اطعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها" فلما سمع الحجاج ذلك اكبره وغلبت عليه البداوة فقال "ياغلام انحر الجزر واطعم النمار (١)

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٥ ـ ١٠٤ نقلا عن ابن خلدون ١ ـ ١٤٥

وكلما تقدم الزمان وتمكن الاسلام من النفوس زادت الامم المختلفة ائتلافا وتمهد بذلك السبيل في تقدم الحياة السياسية والاجتماعية وقد ظهر ذلك في الخلافة العباسية اذ كانت الامم الاسلامية على اختلاف اجناسها واهوائها تكوّن وحدة اجتماعية وسياسية مما ادى الى اتخاذ نظم ادارية اكثر متانة ودقة من قبل وقد ساعد ذلك ان العباسيين والقائمين بامر دولتهم قد نشاوا في بيئة غير التي نشا فيها رجال الدولة الاموية ولا يخفى ما كان لذلك من تاثير في نفوسهم . وقد اصبحت الخلافة العباسية ذات صبغة بارزة ميزتها عن الخلافة الاموية وهي انها دولة اسلامية حتى عد بعض الباحثين غلبة العباسيين على الامويين / ظفرا للاسلام[1] وكانت الدولة ذات صبغة ان لم تكن فارسية محضة فلم تكن عربية خالصة ايضا بينما كانت الخلافة الاموية ذات نزعة عربية بارزة . قال الاستاذ نيكلسن (Nicholson) في وصف هذه الناحية من الخلافة العباسية ومقابلتها بالعصر الاموي" وان لعب العرب دور الغالب في العالم الاسلامي ولم ينظر بعين الرضا في العناصر غير العربية من قبل اما الان فقد انعكس الامر فنحن نمر من عصر القومية العربية الى عصر نهضة فارسية وثقافة ايرانية فتوءلف اخيار الجيوش العباسية من الخراسانيين وتبنى عاصمتهم البديعة في اراضي ايرانية. وتشغل اشراف الفرس اعلى مناصب الحكم في الدولة (٢) .

وهنا لشيء اخر يجب ان نشير اليه ونحن ندرس الخلافة الاسلامية درسا داخليا وهو ان غلبة النفوذ الفارسي في الدولة العباسية لم تكن من عمل العباسيين وان كان لهولاء الخلفاء اثر عظيم فيها ، بل كانت نتيجة طبيعية لسير الحياة الاجتماعية والادارية في الخلافة الاموية نفسها وذلك ان الفرس وان فقدوا الحكم بالفتوحات الاسلامية وخسروا الناحية السياسية طيلة العصر الاموي الا انهم احتفظوا بزعامتهم في سائر النواحي من علمية وصناعية وادارية وغير ذلك من نواحي الحياة الاسلامية.

(١) Nicholson ٢٨٢ .
(٢) " مقدمة : ٢٨

وكان العرب في ذلك العصر يزدرون بكل هذا ولا يعنون الا بالحياة السياسية مما جعل العنصر الفارسي مسيطرا على النواحي التي لها اثر عظيم في حياة الامم كالعلم والتجارة والصناعة وما الى ذلك وقد احرزوا في ذلك افضل منزلة لما خصوا به من قديم حضارتهم واعانهم على ذلك الفهم للحكم والنظام وقد استمر ذلك حتى القرون المتاخرة في الاسلام . قال الاصطخري احد رحالي العرب المشهورين من رجال القرن الرابع بعد ما رحب الى اكثر المناطق الاسلامية " وما علمت مدينة في برو لا بحر فيها قوم من الفرس مقيمون الا وهم عيون تلك المدينة والغالب عليهم اليسار واستقامة الحال والعفة. (٧) (الاصطخري : ١٣٩) فلما فسح لهم المجال في العصر العباسي ان يتدخلوا في شؤون الدولة السياسية ايضا عم نفوذهم هذه الناحية ايضا وانعكس ذلك في التواريخ فان المؤرخين فلما يعنون بغير الحياة السياسية.

نقل العباسيون عاصمتهم من الشام الى العراق ولم يبق هذا الانتقال بلا تاثير في الحضارة العباسية وفي ظهور العناصر الايرانية فيها فقد رأينا فيما سبق ان النظم الادارية ظلت فارسية في المناطق الايرانية بعد الفتح ولم تتغير الحياة الاجتماعية والادارية عما كانت عليه من قبل فعندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة ملكهم الى تلك المناطق بقرب من مدينة طيسفون (المدائن) عاصمة الاكاسرة كانت تلك الحدود مفعمة بالروح الفارسي خاضعة لنظم فارسية مما جعل هذه الصبغة بارزة في هذه الدولة منذ نشأتها.

مضت السنين الاولى من الحكم العباسي في الحروب والمناوشات ولم يأخذوا بتمشية الامور وترتيبها الا عندما بدأ عهد الاستقرار . فكلما ازدادت عنايتهم بادارة البلاد زادت العناصر الايرانية ظهورا وكلما برزت تلك العناصر ودخلت في مرحلة العمل ازداد اعجاب الخلفاء بالدولة الساسانية

وبسياسة ملوكها . واخذ القائمون بامر الادارة من وزراء وكتاب وغيرهم من عماب الدواوين تلك الدولة كمثل اعلى لهم في الملك والسياسة فاخذوا يقتفون اثرهم ويتبعون ارائهم فعمدوا الى ما بقي من المآثر الساسانية فترجموها الى العربية واخذت الآراء السياسية والحكم الادبية الفارسية الساسانية تنتشر في تلك الاوساط فتقتبس منها موضعا فاباب وقد انعكس ذلك في المؤلفات العربية ايضا فكثيرا ما نجد فيها من ذكر محاسن دولة الاكاسرة وحسن سياستهم وعدلهم وتنظيم دولتهم وما الى ذلك مما لا مجال لذكره هنا .

وقد عرف العباسيون ورجال دولتهم بالاقتفاء اثر الساسانيين وكان ذلك مشهودا من معاصريهم .

قال الجاحظ في اول باب يذكر فيه طبقات الندماء والمغنين " ولنبداء بملوك الاعاجم اذ كانوا هم الاول في ذلك وعنهم اخذنا قوانين الملك والمملكة وترتيب الخاصة والعامة وسياسة الرعية والزام كل طبقة حظها والاقتصار على جديلتها (١)

---

(١) التاج ٢٣

وهناك رواية نقلها البيروني عن كتاب لحمزة بن الحسن الاصبهاني في شرح التاريخ العضدي تدلنا على الطريقة التي كانوا يتبعونها في اقتفاء اثر الساسانيين ننقل قسما منها : قال الاصبهاني " ان المتوكل بينا هو يطوف في متصيد له اذ راى زرعا لم يدرك بعد ولم يستحصد فقال استاذنني عبيد الله بن يحيى في فتح الخراج وارى الزرع اخضر فمن اين يعطي الناس الخراج فقيل له ان هذا قد اضر بالناس فهم يفترضون ويتسلفون وينجلون عن اوطانهم وكثرت لهم شكاياتهم وظلمهم فقال هذا شيء احدث في ايامي ام لم يزل كذا فقيل بل هو جار على ما اسسه ملوك الفرس من المطالبة بالخراج في ايام النيروز وصاروا به قدوة لملوك العرب فاخضر الوء بذ وقال له قد كثر الخوض في هذا ولست اتعدى رسوم الفرس فكيف كانوا يفتتحون الخراج على الرعية مع ما كانوا عليه من الاحسان والنظر ".

ثم يشرح له الموءبذ كيفية التكبيس في عهد الساسانيين واهمال العرب بها فيحضر المتوكل ابرهيم بن العباس ويامره ان يوافق الموءيد فيوخر النيروز بالقدر الذي كانت قد تقدمت وكمل ذلك الامر في ايام المعتضد فعرف باسمه وفي ذلك قال البحتري في قصيدة يمدح بها المتوكل .

ان يوم النيروز قد عاد للعهد الذي كان سنه ار دشير

انتحولته الى الحالة الاولى وقد كان حائرا يستدير (١)

---

١) الاثار الباقية ٣١ - ٣٢

قال فون كرمر - فيما نقل عنه الاستاذ بروون

وهو يصف هذه الناحية من الخلافة العباسية . " وقد تضاعف النفوذ الفارسي في بلاط الخلفاء ووصل قمته الاعلى في عهد الهادي والرشيد والمامون فكان اكثر وزرائهم من الفرس او من اصل فارسي واخذت العادات والرسوم الفارسية تتزايد في بغداد يوما عن يوم فاحتفلوا بالاعياد الفارسية القديمة كالنيروز والمهرجان والرام وجعلوا اللبسة الفارسية لبسة البلاط الرسمية ولبس المنصور القلنسوة الفارسية وكانت تقلد في بلاط العباسيين نفس العادات والتقاليد الساسانية ولبسوا البسة مطرزة بالذهب التي كانت من خصائص الحكام وقد وصلت الينا سكة من الخليفة المتوكل تظهره في مظهر فارسي كامل (١)

ومن يتامل في الكتب الادبية العربية وخاصة ما الف في هذه الناحية من حياة العباسيين امثال كتاب التاج للجاحظ لا يستطيع الا ان يرى ذلك التيار قويا في الخلافة العباسية فقلما يذكر رسما من رسوم الملك وقوانين السياسة ولم يات بشاهد او مثال من الدولة الساسانية ويذكر احيانا رسوم الفرس ثم ياتي بما سنه الخلفاء اقتفاء بهم كما ذكر ذلك مثلا في الرشيد وترتيبه للمغنين قال " وهو من بين خلفاء بني العباس من جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم اردشير بن بابك وانوشروان (٢)

---

١) بروون ٢٥٩

٢) التاج ٣٧ - و٣٨

فلا عجب بعدما اشرنا اليه ان نرى بعض المؤلفين يسمون الدولة العباسية خراسانية شرقية قال البيروني عند ما ذكر تنبوءات الزرادشتيين والمنجمين في انتقال الملك من العرب وعودة الدولة الى الفرس وذكر تطبيقهم ذلك على دولة الديلم لكونها في القرانات النارية كالدولة الساسانية "ولست ادري كيف اثروا دولة الديلم ودلالة انتقال القمر من المثلثة النارية اظهر دلالة على دولة بني العباس وهي دولة خراسانية شرقية" (١)

وكان من اثر هذه العوامل كلها ان اصبحت النظم الادارية في الخلافة العباسية نفس التي كانت متبعة من قبل في الدولة الساسانية من منصب الوزارة وعدد الدواوين الرئيسية وترتيبها والرسوم المعموله فيها والقائمين بامرها وما شاكل بحيث يمكننا ان نستخدم لدرس هذه الناحية من الامبراطورية الساسانية ما الفه المؤلفون العرب في الناحية الادارية من الخلافة العباسية (٢)

---

١) الاثار الباقية ٢١٣

(٢) كريستنسن ١٤٣ و ١٠٨ - ١١٠ ← Sykes . ج ١ ص ٥٠٠ ج ٢ ص ٦٦

الفصل الثاني

الكتاب وعمال الدواوين

ظهور طبقة الكتاب في المجتمع العربي ، البيوت الفارسية القديمة التي توارثت الكتابة منذ عهد الاكاسرة ، اكثر الكتاب في دولة الخلفاء من الفرس ، ثقافة الكتاب ومصادرها ، الكتب الادبية الفارسية ونقلها الى العربية ، ما وضع في العربية على غرارها ، وصف الجاحظ لكتاب عصره ، الكتاب في مظاهرهم الخارجية .

.....

من اهم ما ظهر لنظام الديوان من اثر في المجتمع العربي هو ظهور طبقة جديدة لم يكن يعهدها العرب من قبل وهي طبقة الكتاب التي اخذت تظهر في الوجود منذ اواسط العصر الاموي والتي ظلت من اهم العوامل في النهضة الادبية العربية منذ ظهورها .

ومنصب الكتابة ونقصد بها العمل في الدواوين هنا عمل من اعمال الملك ووجوده تابع لوجود الدولة ولذلك كان نشوءه في الاسلام مقارنا لنشوء الديوان وتسرب الانظمة الادارية فيه . وقد تابعنا هذه الانظمة في الخلافة الاسلامية منذ بدء عهدها حتى العصر العباسي الاول التي ظهرت فيه باكمل صورها واجلى مظاهرها واذا تابعنا هذا المنصب في سيره منذ العصر الاول الى اواخر القرن الثاني سنرى انه قطع نفس المراحل التي قطعتها تلك الانظمة نحو الرقي والكمال فعندما لم يكن يعد الكاتب بشيء في اوائل القرن الاول كان يحسب له الف حساب في اواخر القرن الثاني .

لم تكن الكتابة منصبا من مناصب الخلافة الاسلامية في عهد الراشدين بل لم تكن تعد حرفة خاصة كما اصبحت فيما بعد فكان يتولى الكتابة ، اذا دعت الحاجة اليها ، رجال ممن حذقوا الكتابة والحساب وكانت الامور تجرى بصورة بسيطة تناسب روح العصر والحياة العربية السائجة . فمما روى عن عمر انه ارسل مع المسلمين الى وقعة نهاوند السائب ابن الاقرع

وكان يعرف الكتابة والحساب وقال له ان فتح الله عليكم فاقسم على المسلمين فيئهم ، وخذ الخمس وان هلك هذا الجيش فاذهب فبطن الارض خير من ظهرها " ٠ (١) وهكذا جرى من تبعه من الخلفاء الراشدين ٠

وكلما تقدم امر الديوان وزاد اعمالها وتقدمت الدولة نحو التنظيم والادارة اخذت الكتابة تتقدم شيئا فشيئا حتى اصبح منصب الكتابة من المناصب الرسمية في الدوله وعندما نقلت الدواوين الى العربية في اواسط عصر الامويين ازدادت الكتابة بذلك اهمية في الدولة ومكانة عند الخلفاء وهكذا في سيرها نحو الكمال حتى تم في اواخر هذا العصر تكوين هذه الطبقة كوحدة اجتماعية واول ما يعكس لنا ذلك رسالة عبد الحميد الكاتب التي وجهها الى الكتاب مخاطبا اياهم كطبقة خاصة من طبقات المجتمع تربطهم روابط الصناعة والفن ٠ ومما يظهر من هذه الرسالة ايضا هو ان الكتاب كانوا يتمتعون في ذلك العصر وهو اواخر العصر الاموى بمنزلة رفيعة لم تكن لهم في اوائله اذ يقول في شرف صناعتهم " بكم ينتظم الملك ويستقيم للملوك امورهم وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم " الى ان يقول " فموقعكم منهم موقع اسماعهم التي بها يسمعون وابصارهم التي بها ينظرون وايديهم التي بها يبطشون " ٠ (٢)

وقد ازداد شرفهم في الدولة العباسية وظهر من صميم هذه الطبقة منصب آخر سيطر على الادارة وتدخل في امور الدولة وشارك الخلافة في القدرة والنفوذ بل واستأثر بالحكم احيانا وهو منصب الوزارة الذى لا يخفى اثره في حياة الاسلام والعرب ٠

---

(١) ابن الاثير ٠ ـ ٣ = ١٠

(٢) صبح الاعشى ـ ١ = ٨٥

ومن يتامل في امر الكتابة والوزارة ويلقي نظرة ولو اجمالية على هؤلاء الكتاب والوزراء القائمين بامر الادارة في دولة الخلفاء يرى ان اكثرهم من الفرس او ينتمون الى اصل فارسي ولم ينحصر ذلك في العصر العباسي الذي اشتهر بصبغته الفارسية بل ترى هذه الظاهرة جلية حتى في العصر الاموي من ان الامويين قليلا ما كانوا يعهدون باعمال الملك الى غير العرب .

لقد مر معنا ان ديوان العراق بقيت فارسية حتى حوالى سنة الثمانين بعد الهجرة وقلنا ان بعض الدواوين في المناطق الايرانية الاخرى احتفظت بصبغتها الفارسية ولغتها طيلة العهد الاموي . ولا يخفى انه كان يقوم على ادارة تلك الدواوين كتّاب من الفرس من الذين كانوا يقومون باعمالها في العصر السابق للاسلام . ويحدثنا بعض جغرافي العرب ممن رحلوا في تلك المناطق عن بيوت ايرانية قديمة كانت تتوارث العمل في الديوان منذ عهد الاكاسرة حتى قرون متاخرة في الاسلام . قال ابن حوقل وهو من رجال القرن الرابع " بفارس سنة جميلة وعادة قديما بينهم وفضيلة من تفضيل اهل البيوتات القديمة واكرام اهل النعم الازلية وفيها بيوت يتوارثون قديما بينهم اعمال الدواوين على قديم ايامهم الى يومنا هذا ". وعد طائفة من اهل البيوتات هذه التي كان آل المرزبان اقدمها واكثرها عددا في ذلك العصر وقال الاصطخري مثل ذلك ووصف بعضها منها ويظهر مما ذكراه ان هؤلاء الكتاب كانوا يتمتعون بمكانة عالية عند الخلفاء وكانوا يشتغلون احيانا في مركز الخلافة ويقومون بتعليم الخلفاء فمما ذكر عن مدرك بن حبيب وهو من آل حبيب احدى هذه البيوتات المعروفة بفارس ان مامون استدعاه للحساب وغيره من وجوه الخدمة وحظي عنده وقراء عليه فمات ببغداد ايام المعتصم واتهم به يحيى بن اكثم (١)

---

(١) صورة الارض= ٢٩٣ ـ ٢٩٤ والاصطخري ١٤٧ و ١٤٨

ظهرت في الخلافة الاموية في عهد عبد الملك والحجاج حركة ترمي الى تقليل العناصر الدخيلة في الخلافة وافراغها في قالب عربي يناسب وهذه الدولة. ولعل من اجلى مظاهر هذه الحركة نقل الدواوين الى العربية وضرب نقود اسلامية . والواقع ان الامويين خدموا بذلك اللغة العربية اعظم خدمة كان لها اثر بعيد في انتشار هذه اللغة .

ولكنهم لم يوفقوا في جهودهم المبذولة لتقليل العناصر غير العربية في الدولة الا نسبيا (١) اذ لم يلبث الكتاب ان حذقوا العربية ولم يمض زمن حتى سيطروا على الديوان والاعمال الادارية مع فارق انهم كانوا يكتبون ويحسبون بالعربية في هذا العهد . فاذا القيت نظرة عامة على الخلافة الاموية تجد ان جل كتابهم ينتمون الى اصول غير عربية كعبد الرحمن بن دراج كاتب معاوية، وابو الزعيزعة الذى كان على ديوان الرسائل في عهد عبد الملك بن مروان، وشعيب النعماني كاتب الوليد على ديوان الخاتم، وجناح كاتبه على ديوان الرسائل ، ونفيع على المستغلات، وسميع كاتب مسلمة، والليث بن الحارقية على ديوان الرسائل ، ونعيم بن سلمة على ديوان الخاتم، والليث بن ابي فروة، واسماعيل بن ابي حكيم من كتاب عمر بن عبد العزيز، وسالم بن عبد الله كاتب هشام ابن عبدالله، وابنه عبد الله بن سالم كاتب الوليد بن اليزيد ، وعمرو بن الحارث متولي ديوان الخاتم ليزيد بن الوليد الناقص، وعثمان بن قيس على ديوان الرسائل لمروان بن محمد . واخيرا عبدالحميد الكاتب امام الكتاب وصاحب الطريقة المشهورة في الكتابة العربية، وابن المقفع صاحبه وان كان من المضرمين . هذا في العهد الاموى مع تعصبهم للعرب فكيف في الدولة العباسية ولم يكونوا يتعصبون الا للاسلام.

---

(١) Braune I ٢٠٥ – ٢٠٦

كانت الكتابة والعمل في الدواوين وخاصة ديوان الخراج وامثالها من الدواوين المالية يتطلب ثقافة راقية ومعارف واسعة توهل الكاتب لا للكتابة في المواضيع المختلفة التي تطراء للخارقة فحسب بل لها ولغيرها من اعمال الديوان كالحساب والمساحة ومعرفة اصول الخراج وسكك البرد وما شاكل وكان ذلك من اهم الاسباب في قصر الكتابة ثم الوزارة فيما بعد على الفرس وعلى الذين كان لهم سابق معرفة بتلك الانظمة والاعمال .

قال الاستاذ احمد امين في بيان الوزارة في العصر العباسي " وهذه القدرة الكتابية التي كان يشترطها الخلفاء في الوزير كانت من اكبر الاسباب في قصر الوزارة على الفرس غالبا - فالعرب كانوا اهل فصاحة لسانية اكثر منهم اهل بلاغة كتابية . ولعل هذا هو السبب في انهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان فقالوا رجل لسن اذا كان ذا بيان وفصاحة ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة. والحق ان القدرة الكتابية كانت عند الفرس ابين منها عند العرب وحتى في الدولة الاموية كان اظهر الكتاب الفنيين من الفرس ايام عبد الحميد الكاتب وسالم مولى هشام .

وكان العربي يفخر بالسيف واللسان لا بالقلم قال يزيد بن معاوية يعدد فضل بيته على زياد بن ابيه " لقد نقلنا ك من ولاء ثقيف الى عز قريش ومن عبيد الى ابي سفيان ومن القلم الى المنابر"

(١) وقال جرجي زيدان في سبب ازدراء العرب للتعلم والمهن في ذلك العصر ما يلي = " فالعرب اشتغلوا عن العلم في اول دولتهم بالرئاسة والسياسة للاسباب التي قدمناها وما زالوا هم اهل الدولة وحاميتها واولي سياستها الى اوائل الدولة العباسية فتولد فيهم بتوالي الاجيال الانفة من انتحال العلم لانه صار من جملة الصنايع - وهو واهل الرئاسة يستنكفون من الصنائع والمهن - وكانوا اذا راوا عربيا يشتغل في اللغة او التعليم عابوه وقالوا " انه يشتغل بصناعات الموالي"

---

(١) ضحى الاسلام ١ - ١٦٧

ومن اقوالهم " ليس ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم الا علم الاخبار واما غير ذلك فالتقف والتذر من القول " ومر رجل من قريش بفتى من ولد عتاب بن اسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال " اف لكم علم المتادبين وهمة المحتاجين "(٢)

ووصف الصطخري دواوين الخلافة في عصره وقال " والفرس هم سدنة دواوين الخلافة والعمال الذين بهم قوام السياسة فمن الوزراء وساير عمال الدواوين فمنهم البرامكة وآل ذي الرياستين والى يومنا هذا من المادرائيين والغير يابيين وساثر سدنة الخلافة من اولاد الفرس الذين انتقلوا الى السواد في ايام الاكاسرة فاقاموا في ارض النبط " (٣)

وقال في موضع اخر وهو يصف خراسان " ومنها عامة قواد الخلافة وكتابها بالعراق وولاة خراسان ومنها ائمة من الفقهاء والادب معروفون ." (٤)

ثقافة الكتاب ومصادرها: تعمر الكتاب منذ بدء عهدهم في الاسلام انهم بحاجة شديدة الى معارف اوسع من معارف معاصريهم وهذا ما كان يتطلبه منهم عملهم من اطلاعات فنية او معلومات ادارية تساعدهم للقيام بوظائفهم في الديوان او ما اوجبته لهم مكانتهم من الدولة ومنزلتهم عند الخلفاء من العلوم والاداب. فعندما تقدمت الدولة في الحضارة والعمران وظهر في الانظمة الادارية ما ظهر من التنوع والاتقان لم يقنع من الكاتب ايضا بثقافة سانجة ومعلومات ضيقة . لقد عرفت في ذلك العصر بواعث كثيرة للخلافة وزادت اعمال الملك والسلطان مما جعل من الضروري وجود كتاب فنانين يستطيعون ان يديروا امور الدواوين بطريقة تجاري روح الدولة وروح حضارتها فوجب على الكاتب ان يكون ذا بصيرة تامة في كل موضوع يعرض للخلافة ويكتب فيه .

---

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ٣ = ٥٠ = ٥١ (٣) المسالك والممالك = ١٤٦

(٤) الاداب السلطانية ٧٧ المسالك والممالك : ٢٦٢

اضف الى ذلك ان الكاتب في ذلك العصر كان جليس امراء ونديم الخلفاء والخلفاء في ذلك الحين كانوا يعيشون عيشة كسروية يراعى في مجالسهم كلما وجب رعايته في مجالس الملوك ومحاضر الجبابرة من الاداب والرسوم ولذلك كان على الكاتب عناية على معرفة اداب المعاشرة ورسوم المنادمة ان يكون على جانب عظيم من الظرافة ولطف الحديث عارفا بلطائف الحكايات ونوادر الامثال جامعا لمعلومات متفرقة في مختلف نواحي الحياة يستطيع بها ان يتكلم في كل موضوع يطرح في محضر الخليفة ويجيب عن كل سوال يوجه اليه . وهو مع ذلك وسيط بين الملك وعرضيه فيجب ان يكون في طبعه تطرينا سب طباع الملوك وتطرينا سب طباع العوام ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له ٥٠ (الآداب السلطانية : ١٧٩

ولكن من اى المصادر استمد الكتاب مواد ثقافتهم هذا فلم يحوها الادب العربي في عصر نشوء هذه الطبقة الا على قصائد او روايات جاهلية او اسلامية تروى شفهيا وهذه الاشعار والروايات لم تكن تشتمل على ما احتاج اليه الكتاب من قواعد الملك والسياسة او انواع الادب ، وما شاكل فان كان لها اثر كبير في تثقيف السنتهم فلم تساعدهم كثيرا في تثقيف عقولهم . ولم يعن الكتاب لما كان اهل عصرهم يعنون به من المعارف والعلوم الاسلامية كالفقه والحديث والتفسير وما الى ذلك اذ لم تكن لها علاقة بما احتاجوا اليه الا بقدر ما يدخل منها تحت الادب = فقلما تجد احدا من الكتاب برع في هذه العلوم او ورد اسمه بين المحدثين والفقهاء والمفسرين وامثالهم . (١) فكان من الطبيعي والحالة هذه ان يولوا شطر الادب الفارسي ويغذون عقولهم بما قد اعد في هذا الادب لتثقيف هذه الطبقة في العصر الساساني من كتب مؤلفة او رسائل محفوظة في الاداب السلطانية وسياسة الملوك او في الحكم العملية ومحاسن الاخلاق او في فنون الكتابة ورسوم العمل في الدواوين او غير ذلك وهذا ما حدث بالفعل ،

---

(١) الموسوعة الاسلامية ٢ ـ ٨١٩ مقالة

الكتب الادبية الفارسية

ونحن وان لا نستطيع ان نذكر هنا بالتفصيل كلما وصل الى العرب من الكتب الفارسية في حقل الادب واصبحت من مصادر الكتاب فيما بعد الا انه من الواجب علينا ونحن ندرس ثقافة الكتاب ان نلقي نظرة اجمالية على طبيعة هذه الكتب ولوعها لعلها تساعدنا على تحليل عناصر هذه الثقافة وفهم اتجاهاتها . وقد ذكرنا فيما كتبناه سابقا كمقدمة لدرس العلاقات التاريخية بين الادبين الفارسي والعربي ما يغنينا عن الاطالة هنا.

مما يدخل تحت الادب قسم من الاثار الساسانية التي كانت مشتملة على تاريخ ايران والمناطق الداخلة في الحكم الساساني ومما وصل الى العرب من هذا القبيل كتاب " خداى نامه" وهو تاريخ عام للدول الايرانية منذ اقدم عصورها حتى اواخر العصر الساساني وكتاب صور ملوك بني ساسان وهو تاريخ مصوّر للدولة الساسانية فيه صورة كل ملك من هولاء الملوك مع شيء من سيرهم وما روى من اقوال المأثورة عنهم وما شاكل وكتب اخرى لا نطيل بذكرها (١) ويدخل في هذا النوع القصص التاريخية او السير وهي الكتب الروائية المؤلفة في سير بعض الملوك او الابطال المشهورين في تاريخ الدولة الساسانية ككتاب (بهرام جوبين) وكتاب (شهر براز وابرويز) وكتاب (بهرام ونرسي) وكتاب (سيرة اردشير) (وسيرة انوشروان) وما الى ذلك (٢)

ومن الكتب الفارسية التي لها اهمية كبيرة في الادبين البهلوي والعربي معا تلك الكتب التي كانت تدور حول الاخلاق او الادب الاخلاقي . ومن يتامل في الادب البهلوي الساساني يرى ان هذا النوع من الكتب يعد من اهم اقسام هذا الادب .

---

(١) راجع مقالتي (مقدمة لدرس العلاقات التاريخية بين الادبين الفارسي والعربي) ص٢٦ – ٣٤

(٢) نفس المصدر ٥٥ – ٥٧

وقد بلغ عنايتهم بهذه الناحية من الادب بحيث ترجموا الى اللغة البهلوية بعض الاثار الهندية ايضا . وقد ذكر ابن النديم ذيل عنوان " الكتب الموءلفة في المواعظ والاداب والحكم (١) اربعا واربعين من هذه الموءلفات يرجع قسم كبير منها الى اصول فارسية والقسم اخر منها تحت تاثير الكتب الفارسية ويظهر من القاءمة في هذا القسم من الفهرست مدى انتشار هذه الكتب بين العرب والمسلمين في عصر تدوين الكتب العربية (٢) ومن هذا القبيل نوع اخر من الكتب البهلوية التي كانت تبحث في الاخلاق من الوجهة الزرادشتية والتي يمثلها في الادب العربي تلك الطبقة من الكتب التي اشتهرت باسم (المحاسن) كما سنفصل ذلك فيما بعد .

ولعل اكثر الاثار الفارسية اتصالا بثقافة الكتاب هو ذلك النوع من الكتب والرسائل الدائرة حول اداب الملوك وقواعد الملك والسياسة التي كانت توجد بكثرة في الادب البهلوى وكان انتشارها عظيما بين العرب في القرنين الثاني والثالث للهجرة .

كان الملوك الساسانيون يدونون تجاربهم في حقل السياسة والتدبير ويتوارثون فيما بينهم ما سنه السلف من قواعد الادارة والملك وبذلك ظهر في الادب الساساني عدد كبير من الاثار المشتملة على هذا النوع من المعارف والمنسوبة الى احد من هولاء الملوك .

وهذه الاثار كانت في الاغلب بصورة رسالة كتبها الملك الى ابنه او وصية اوصاه بها او عهد تعهد ها اليه نذكر من هذا القبيل ما عرف باسم رسالة كسرى ابرويز الى ابنه شيرويه (٣)

---

(١) الفهرست ٣١٥ (٢) راجع ص٠ - ٣٧ - ٥٠

(٣) راجع ما كتبته عن (ابن قتيبه وعيون الاخبار) ص٠

ويظهر من المسعودي ان هذه الرسالة كانت تحوي على عدة مراسلات متبادلة بين كسرى وشيرويه (١). (وعهد قباد الى ابنه) (٢) (وكتاب كسرى انوشروان الى ابنه هرمز) (٣) وكتاب (وصايا اردشير بابكان الى ابنه سابور) (٤) اضف الى ذلك قسما من الكتب المؤلفة في انواع الفنون والاداب التي كانت تتطلب من ابناء الارستوقراطية الساسانية في اداب المعاشرة والرسوم والقواعد المرعية في مجالس الملوك او في الطبقات العالية وانواع الرياضات المستحسنة والمتداولة في ذلك العصر كالرماية والفروسية واللعب بالصولجان وما شاكل مما كان موضوع كتب امثال كتاب الاثين (٥) وكتاب التاج (٦) وغيرهما من الكتب .

ذكرنا في الفصل الاول من هذا الكتاب شيئا عن العناية التي كان يبذلها الكتاب في العصر الساساني لافراغ منشآتهم في قالب فني واسلوب ادبي طبقا للقواعد المرسومة في ذلك العصر ونزيد هنا على ما ذكرناه سابقا ان مراعاة الاسر الفنية لم تكن منحصرة في الرسائل الديوانية بل كان يراعى هذا الاسلوب حتى في الكتب والرسائل الغير ديوانية كما لاحظ ذلك العلامة نلدكه في درسه لكتاب خداى نامه (٧) وكما نستفيد ذلك من قول الجاحظ حينما قال نقلا عن الشعوبية . «ومن احتاج الى العقل والادب والعلم بالمراتب والعبر والمثلات والالفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر الى سير الملوك» (٨) هذا ولكن ولم يظهر الاسلوب الفني في هذه الكتب بمثل ما ظهر في نوع اخر من الاثار الفارسية التي وصلت الى العرب وهي الخطب التي كان يلقيها كل ملك من الملوك الساسانيين عند اعتلائهم على عرش المملكة او الرسائل التي كانت تكتب عنهم الى الرعية

١) مروج الذهب ٢ = ٣٣٣ (٢) الفخري لابن الطقطقي = ٧٩

٣) الفهرست ٣١٨

(٤) الفهرست = ٣١٨ (٥) ابن قتيبه وعيون الاخبار (٦) ابن قتيبه وعيون الاخبار

(٧) Iranian Influence..

٨) البيان والتبيين — ٣ — ١٠ ١٤٦ — ١٤٧

~~للساسانيين عند اعتلائهم على عرش المملكة او الرسائل التي كانت تكتب عنهم الى الرعية~~

او الى ملوك الاطراف في حوادث هامة كانت تحدث لهم او في المملكة كفتح بلاد او تغيير في امر الملك او استبشار بولادة ولد لهم وما الى ذلك من المواضيع التي تعد هامة في العرف. وكانت هذه الرسائل والخطب تدون في الديوان وتحفظ في الخزانة . وقد تسربت منها الى التواريخ الساسانية ويظهر انها وصلت الى العرب بواسطة هذه التواريخ الساسانية ايضا وكانت معروفة في القرنين الثاني والثالث للهجرة . وقد حفظ لنا بعض التواريخ العربية نتفا من هذه الرسائل والخطب وهي لاتزال تحتفظ بشيء من اسلوبها الفني (١) نذكر من ذلك مثلا الخطبة التي القاها هرمز بن كسرى انوشروان عند عقد التاج على راسه (٢) والكتب التي كتبتها الى العامة بوران بنت كسرى ابرويز حين ملكت واعلمتهم ما هي عليه من الاحسان اليهم وذكرت حال من هلك من اهل بيت المملكة وما الى ذلك (٣) وكتاب كسرى ابرويز في الفتح عندما غلب على خصمه بهرام جوبين (٤) وما شاكل من الرسائل والخطب التي تجد ذكرها في التواريخ . ويدخل ضمن هذه القطع الادبية ما رويت من توقيعات الاكاسرة وهي ما كانوا يكتبونها تحت القصص المرفوعة اليهم او من الحكم المأثورة عنهم وهي عبارات قصيرة مؤلفة بطريقة فنية مشتملة غالبا على مواضيع اخلاقية او في المحكمة العملية .

وقد انتشرت هذه الكتب والرسائل والخطب الفارسية بين المتادبين والكتاب في العصور الاولى الاسلامية فترجموها الى العربية . ودونها المؤلفون في كتبهم .

---

(١) ~~مروج الذهب ٢ ـ ٢٢٩ (٢) رسائل البلغاء (١٢٣ (٣) راجع الفهرست ـ ٣٢٥~~

(٢) الاخبار الطوال : ٧٧ - ٨٠

(٣) الطبري الجزء الاول : ١٠٦٤

(٤) الحسن والسادي : ٤٨١

وعد المسعودي في مروج الذهب من الآثار الفارسية التي اوردها في كتبها السالفة ، تلك الكتب التي اتلفت ولم تصل الينا: اخبار ملوك الفرس وسيرهم ووصاياهم وعهودهم ومكاتباتهم وتوقيعاتهم وكلامهم عند عقد التيجان على رؤوسهم ورسائلهم (١) وقال ابن المدبر في رسالته العذراء التي تبين فيها اصول البلاغة في كتابة الدواوين وما يجب على الكاتب معرفته مخاطبا اياه " وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وامثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وتوقيعاتهم وسيرهم ومكايدهم في حروبهم (٢)

بعد نقل الآثار الفارسية الى العربية

يظهر ان اول ما بدات هذه الآثار تتعرب الى العربية كان عندما اخذ الكتاب يتعرفون انفسهم مع تقدم امور الدولة بحاجة الى ما يوعملهم للقيام بواجباتهم وكان من هذه الطبقة او ممن ينتمون اليها بسبب من قاموا بنقل هذا القسم من الآثار الفارسية الى العربية كابن المقفع والحسن بن سهل والفضل بن سهل وجبلة بن سالم وامثالهم من المترجمين الكتاب (٣) وقد عنوا بحفظ هذه الآثار ودرسها عناية بالغة وبلغ من اهتمامهم بها ان افرادا من اهل الادب قاموا بنظم بعض هذه الكتب بالعربية فيحدثنا ابن النديم ان احمد بن يحي بن جابر البلاذري وهو من النقلة من الفارسي الى العربي ترجم عهد اردشير بشعر (٤) ويقول عن ابان بن عبد الحميد اللاحقي انه اختص بنقل الكتب

---

١) مروج الذهب ـ ٢ ـ ٢٣٩ (٢) رسائل البلغاء ـ ١٧٧

٣) راجع الفهرست ٢٤٤ (٤) الفهرست ١٦٤ (مجمع مصر)

المنثورة الى الشعر المزدوج وعد مما نقله شعرا كتاب كليله ودمنه وكتاب سيرة اردشير وكتاب سيرة انوشروان وكتاب بلوهروبردانيه وكتاب رسائل وكتاب علم الهند . وكان باعثه على ترجمة هذه الكتب لمنقولة رجال مطبقة الكتاب والوزراء فروى ان يحيى بن خالد اعطاه عشرة الاف دينار لنظم كليله ودمنه واعطاه الفضل بن يحيى خمسة الاف دينار وذلك ليسهل عليهم حفظه (١)

ولم ينحصر عمل الكتاب واهل الادب حذفي ذلك العصر بنقل هذه الكتب وافراغها في قالب الشعر ودرسها بل اخذوا يوضع كتب في العربية على غرارها مستمدة مطالبها من مطالب هذه الكتب حاوية نفس المواضيع موضوعة في هيئة اكثر ملائمة للبيئة العربية الاسلامية . ولعل من الخير ان نشير الى بعض هذه الكتب ليرى القارى كيفية تطور كتب فارسية ردشتية الى كتب عربية اسلامية.

نذكر من هذا القبيل مثلا كتاب التاج المنسوب الى الجاحظ والجاحظ وان لم يدخل في خدمة الديوان الا ثلثة ايام (٢) وهذه المدة القليلة لا تكفي لعده من الكتاب الا انه يشارك هذه الطبقة في ثقافتها وقد يكون هو خير ممثل لامتزاج الثقافات في عصره. فمن يقراء هذا الكتاب ويتامل في مواضيعه وترتيبه ويقارنه بغيره من الكتب العربية المؤلفة في ذلك العصر او يقارنه بغيره من كتب الجاحظ نفسه لا يستطيع الا ان يرى الفرق عظيما بينه وبينها .

ولير هذا الفرق الا لان هذا الكتاب جديد في العربية كل الجدة لا من حيث الموضوع فقط بل من حيث الصورة والهيئة حتى والاسم ايضا .

---

(١) الرفاعي عصر المامون ١ - ٤٢٣ (نقلا عن ابي الفرج الاصبهاني والصولي .

يدور الكتاب كما يظهر من اسمه على اخلاق الملوك واداب معاشرتهم وما يختص بهم قال الجاحظ في سبب تاليفه انه لما كانت اكثر العامة وبعض الخاصة تجهل الاقسام التي تجب لملوكها عليها وان كانت متمسكة بجملة الطاعة في الجملة لذلك حصر اداب الملوك في هذا الكتاب ليجعلها العامة قدوة لها واماما لتاديبها (١) وقد اشرنا فيما مر بعدنا انفا الى كتاب من الكتب الفارسية التي وصلت الى العرب باسم (كتاب التاج) او رد ابن مقفع بعض مقتطفات من هذا الكتاب الساساني في عيون الاخبار فمما يجدر بالذكر ان هذه المقتطفات لا تخرج في مواضيعها عما يدور عليه كتاب الجاحظ مما يقرب الى الذهن ان الجاحظ اعتمد في تاليف كتابه هذا على كتاب فارسي من هذا النوع قد يكون هو كتاب التاج الساساني نفسه كما يجوز ذلك المستشرق الروسي (كراتشوفسكي (٢) وعلى كل فمؤلف هذا الكتاب متاثر بالمصادر الفارسية الى حد كبير وقد يبلغ هذا التاثر مبلغا يخيل الى القارئ انه ترجم اقساما من الكتاب من تلك المصادر مباشرة فانه ياخذ احيانا بسرد عادات ورسوم لم يبق لها محل في الاسلام (٣)

ونذكر من هذا القبيل ايضا ما وضعه ابن المقفع من الكتب واشتهر باسمه ككتب اليتيمة والادب الكبير والادب الصغير . فان كان كتاب التاج السابق الذكر يمثل نوعا من الكتب البهلوية المؤلفة في اداب الملوك والرسوم المتبعة في مجالسهم فكتب ابن المقفع يمثل في الغالب ذلك القسم من الادب البهلوي الذي كان يرمي الى تهذيب النفس وتذكية الاخلاق ويحتوي على ادب السياسة (٤) وقد كان هذا النوع من التاليف ايضا جديدا في اللغة العربية واستشهد بذلك كل من كتب عن ابن المقفع فقال ابو الفضل احمد بن ابي طاهر بعدما يصف اليتيمة بالبلاغة و

---

(١) التاج في اخلاق الملوك ٢ (٢) راجع ذلك في رسالته التي بعثها الى احمد زكي باشا مصحح كتاب التاج التي طبعت في مقدمة هذا الكتاب صفحة ٦٨

(٣) راجع لذلك مثلا صفحة ١٤٦ وصفحة ١٦٠ ج ٤ ص ٥٨ - ٥٩ Inostranzov

وحس التاليين "فان الناس جميعا مجمعون انه لم يعبر احد عن مثلها ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها" (١) ولا يجد القارئ في هذه الكتب اي اختلاف في المطالب والموازين عن ما يراها في الكتب الاخلاقية الساسانية . وقد ادت تلك المتابعة العظيمة التي كانت موجودة بين هذه الكتب وبين اشباهها في اللغة البهلوية بعض المؤلفين الى عدها من الكتب المنقولة فروى عن اليافرني ان كتاب اليتيمة منسوخ من كتاب بزرجمهر للحكمة (٢) بينما عدها ابن النديم من كتابي الادب الكبير والادب الصغير ضمن الكتب التي نقلها ابن المقفع من الفارسية (٣) ويؤيد ذلك ما تراه في هذه الرسائل مما يخالف الكتب الادبية العربية من حيث الاسلوب والترتيب تمام المخالفة فلم تجد فيها استشهادا بشعر العرب ولا تمثلا بامثالهم او رواية لحكمهم ومواعظهم او ذكر فصاحتهم والاشارة الى ايامهم او الى اي شيء اخر يتعلق بحياة العرب (٤) حينما لم يخل كتاب عربي من ذلك .

وهناك نوع اخر من الكتب التي ازدهرت في الادب العربي تحت تاثير ما ترجم من الادب البهلوي من هذا القبيل وهي الكتب التي اشتهرت في الاسلام باسم "المحاسن" او المحاسن والاضداد والمحاسن والمساوئ فيما بعد. والمستشرق الروسي اينوسترانزف بحث طرفا في هذه الناحية من الادب العربي انقل قسما منه بالتلخيص = يعتقد المستشرق المار الذكر ان عمر بن الفرخان الطبري نقل كتابا من البهلوية الى العربية سمي باسم (كتاب المحاسن) وهو اول كتاب من نوعه في الادب العربي ويمثل تلك الكتب الادبية التي كانت تشمل على مواضيع اخلاقية من الوجهة الدينية الزرادشتية وعمر بن الفرخان هذا كان من طبرستان ثم انقطع الى يحيى بن خالد بن برمك ثم الى الفضل بن سهل (٥)

---

(١) رسائل البلغاء ١١٥ نقلا عن كتاب المنثور والمنظوم المحفوظ بدار الكتب المصرية

(٢) ابن المقفع لخليل مردم – ٦٠ (٣) الفهرست ١١٨ (٤) ابن المقفع لخليل مردم ٦٦

(٥) تاريخ الحكماء للقفطي ٣٤٢

وقد اصبح هذا الكتاب فيما بعد مثالا للكتب التي وضعت من هذا القبيل واليك ما يقوله اينوسترانزف Inostrantzev : تجد في الفهرست كتبا متعددة بهذا الاسم فمنها ما نسب الى ابن قتيبه (١) ولا شك انه الف بعد كتاب عمر بن الفرخان فان ابن قتيبه اشتهر في اواخر عصر المامون وازدهر انتاجه الادبي في القرن التاسع للميلاد. ولا يخفى اهتمام ابن قتيبه ايضا بالاثار الادبية الفارسية وهذا ما يحملنا على القول بان كتابه (المحاسن) لم يخل من تلك العناصر وانه اول تقليد لكتاب عمر بن الفرخان .. ومما يجدر بالذكر ان كتبا بهذا العنوان نسبت الى المؤلفين الشيعة كابي نصر محمد بن مسعود العياشي الذى نسب اليه تاليف كتاب (محاسن الاخلاق (٢) وابى عبد الله محمد بن خالد البرقى الذى ذكره ابن النديم كتاب المحاسن (٣) ولا جدال في العناية التي كان يظهرها المؤلفون الشيعة الى المآثر الفارسية . ونسب كتاب باسم (المحاسن) ايضا الى مؤلف باسم ابن الهارون (٤) الذى ورد اسمه في الفهرست كمؤلف كتب في الادب ونسب اليه ابن النديم كتابا باسم كتاب الادب .

وكما ذكرنا فيما مر معنا سابقا كان لكل كتاب من هذا النوع اى ما يدور حول الادب علاقة تامة بالمآثر الفارسية . ومن المحتمل ايضا ان تكون تلك العناصر الفارسية * موضوع كتب دعيت باسم (محاسن الاداب ؟) كتاب محاسن الادب للضفهاني مثلا) . ونحن نعتقد ان كل هذه الكتب بما فيها كتاب المحاسن لعمر بن الفرخان كانت مشتملة على مواد فارسية . وقريب من هذا النوع قسم اخر من الكتب الادبية التي تدور حول محاسن الاخلاق واضدادها

---

(١) الفهرست ٧٧ (٢) الفهرست ١٩٥ (٣) الفهرست ٢٢١ (٤) الفهرست ١٤٥

ككتب المحاسن والاضداد او المحاسن والمساوئ. ولا نجد كتبا بهذا الاسم في الفهرست الا اننا نعرف من هذا النوع كتابا لابرهيم بن محمد البيهقي الف في اوائل القرن العاشر للميلاد باسم كتاب المحاسن والمساوئ وكتابا اخر باسم المحاسن والاضداد الذي نسب الى الجاحظ. ومعلوم ان هذين الكتابين يرجعان الى اصل واحد ومن المحتمل ان لم يهمل في كتب المحاسن ايضا ذكر الاضداد.

واذا راجعنا الى الادب الفارسي الزردشتي نرى ان هذه الطريقة اي مقابلة الاضداد شايعة مستفيضة فيه. فنرى في الكتب الاخلاقية الزردشتية الاوصاف والاعمال الحميدة تقابل دائما بما يضادها من الاعمال والاوصاف الذميمة وبما يصطلحون عليه بكلمتي (شايد و نشايد) ومن المعلوم ان كتبا من هذا القبيل كانت معروفة في عصر يقع بين القرنين السادس والتاسع للميلاد. ومقارنة هذه الاثار البهلوية مع الكتب العربية من هذا النوع تحصل لنا فكرة عن طبيعة الحضارة في ذلك العصر الذي دونت فيه تلك الكتب وعن خصائصها الرئيسية. وبعبارة اخرى نقف من خلال هذه الكتب على تلك الروابط الثقافية والادبية الوثيقة التي كانت تربط الامتين العربية والفارسية وعلى العلاقات التي كانت توجد بين الديانتين الزردشتية والاسلامية "(١)

ومن هذا القبيل من الكتب التي وضعت في العربية على غرار ما نقل من الفارسية ما وضعه سهل بن هارون وهو من اعاظم كتاب عصره ويظهر ان جهوده كانت متجهة نحو الكتب القصصية فقد عدله ابن النديم خمس من هذه الكتب منها كتاب ثعلة وعفراء الذي وضعه على مثال كليله ودمنه

---

(١) راجع في ذلك Iranian Influence ص. ٨٠ – ٨٥

(٢) الفهرست ١٢٠ ومروج الذهب ١ – ١٥٩

ولا شك انه كان في عشرات كتبه القصصية ايضا متاثرا بالكتب المنقولة كما يظهر ذلك من اسمائها وعناوينها. والقارئ المتامل في الادب العربي وخصوصا ما الف من الكتب الادبية في القرنين الثاني والثالث للهجرة يرى هذه الظاهرة جلية ويجد امثالا متعددة لهذا النوع من الكتب لا نطيل هنا بذكرها اكثر من ذلك.

وقد ابلغ مقدار تاثر المؤلفين للكتب العربية بمصادرهم الفارسية بدرجة اختاروا لكتبهم اسامي فارسية احيانا ويظهر ذلك جليا بمراجعة الفهرست نذكر هنا مثلا من كتب ابي عبيده الريحاني (١)، كتاب ادب جوانشير وكتاب كيلهراسف وكتاب مهرازرجنس (٢) واهمها كتاب روشنائي نمك (٣) الذي يطابق اسمه كتابا في الادب البهلوي بهذا الاسم من نوع الكتب الاخلاقية الزرادشتية ويقرا في الفارسية باسم (روشنائي نامه) وهو اسم كتاب الفه ناصر خسرو من شعراء القرن الخامس لا يخرج في موضوعه عما ذكرناه ومن كتب ابن المقفع كتاب الاداب الكبير الذي عرف باسم " ماه فراجتنس " (٤) ولا نحتاج ان نذكر هنا ان كتاب التاج المنسوب للجاحظ ايضا ماخوذ اسمه من كتاب بهذا الاسم في الادب البهلوي.

ولعل من الصواب بعد ان القينا نظرة سريعة على ما انتجه المؤلفون في القرون الاولى الاسلامية في حقل الادب ومدى تاثرهم بمن سبقهم في هذه الناحية ان نرجع الى هؤلاء المؤلفين انفسهم لنرى كيف كانوا ينظرون الى موقفهم هذا وكيف كانوا يقيسون انفسهم باسلافهم. قال ابن المقفع وهو من اجل ادباء عصره بلا خلاف بعد ان وصف الماضين بالعلم والبلاغة والفضل وتاليف الكتب التي كفوا بها مؤونة التجارب ما ياتي "

---

(١) الفهرست ١١٩ (٢) راجع في هذه الكلمة Nöldeke Tabari 41 — ٤٢ (٣) لم يستطع فلوكل في طبعه للفهرست قراءة هذه الكلمة للتحريف الواقع فيه راجع لزيادة ايضاح هذا الكتاب الفصل السابع ص ٨٩ — ٩١

(٤) على قراءة Ost. راجع Huffmann و Justi ٥٨ Iran.

« فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان انما خذ من علمهم وغاية احسان محسننا ان يقتدى بسيرتهم واحسن ما يصيب من الحديث محدثنا ان ينظر في كتبهم فيكون كانه اياهم يحاور ومنهم يستمع غير ان الذى نجد في كتبهم هو المنتحل (المختار) من ارائهم والمنتقى من احاديثهم ولم نجدهم غادروا شيئا يجدوا = ف (١) بليغ في صفة له مقالا لم يسبقوه اليه لا في تعظيم الله عز وجل ولا في تحقير للدنيا وتزهيد فيها ولا في تحرير صنوف العلم وتقسيم اقسامها وتجزئة اجزائهـــا وترضيح سبلها وتبيين ما عنذها ولا في وجوه الادب وضروب الاخلاق فلم يبق في جليل من الامـــر لقائل بعدهم مقال » (٢) وقال الجاحظ في كلام له في وصف الكتاب « ولولا ما قسمت لنا الاوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من انواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وادركنا ما لم نكن ندركه الا بهم لقد خس حظنا من الحكمة ونقص سببنا الى المعرفة (٣) هذا وقد احتفظت هذه الناحية من الادب العربي بصبغتها الفارسية طيلة قرون وعرفت بذلك ايضا فمن قول ابن القفطي « وتختلف علوم الملوك باختلاف ارائهم فاما ملوك الفرس فكانت علومهم حكما ووصايا وادابا وتواريخ وهندسة وما اشبه ذلك واما علوم ملوك الاسلام فكانت علوم اللسان كالنحو واللغة والشعر والتواريخ حتى ان اللحن كان عندهم من افحش عيوب الملك وكانت منزلة الانسان تعلو عندهم بالحكاية الواحدة وبالبيت الواحد من الشعر بل باللفظة الواحدة (٤)

المنتحل

اظنك بعد ان قرات ما مر معنا في طبقة الكتاب واتجاهاتهم وما نقلوه من الكتب الادبية الفارسية وما اظهروه من الاهتمام والعناية بهذه الكتب من مختلف النواحي توافق معي في القول بان هذه الكتب الفارسية كانت من اهم العناصر المكونة لثقافة الكتاب في عصر اخذت هذه الطبقة تظهر في المجتمع العربي وفي عصر كان لها المكانة الاولى في الحكم بعد الخلافة وان اردت زيادة توضيح لا في ثقافتهـــم فحســـب بل فيها وفـــي اخلاقهم واقـــوالهـــم ونظر معاصريهـــم

(١) هكذا في الاصل (٢) الدرة اليتيمة المنثورة في مجلة المقتبس المجلد الثالث ١٧٩

(٣) كتاب الحيوان (٤) الفخري في الاداب السلطانية ٢٢

من العرب اليهم باسمن الى الجاحظ ليصل بطريقته المشهورة كتابه [illegible] في درسنا هذا .

الجاحظ يصف كتاب سيرة

قال الجاحظ « ثم الناشيء فيهم اذا وطيء مقعد الرئاسة ودور منورة الخلافة وحجزت السلة دونه وصارت الدواة امامه وحفظ من الكلام فتيقه ومن العلم ملحه وروى لبزرجمهر امثاله ولاردشير عهده ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع ادبه وصير كتاب مزدك معدن علمه ودفتر كليله ودمنه كنز حكمته ، انه الفاروق الاكبر في التدبير وابن عباس في العلم والتأويل » الى ان يقول « فيكون اول بدوه الطعن على القرآن في تاليفه والقضاء عليه بتناقضه ثم يظهر فيه طرفه بتكذيب الاخبار وتهجين من نقل الآثار فان استرجح احدا اصحاب الرسول (ﷺ) فتل عن ذكرهم شدقه ولوى عن محاسنهم كشحه وان ذكر شريح جرحه وان نعت له الحسن استثقله وان وصف له الشعبي استحمقه وان قيل له ابن جبير استجهله وان قدم عنده النخعي استصغره ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان وتدبير انوشيروان واستقامة البلاد لآل ساسان فان حذر العيون وتفقده المسلمون رجع بذكر السنن الى المعقول ومحكم القرآن الى المنسوخ ونفى ما لا يدرك بالعيان وشبه بالشاهد الغائب لا يرتضي من الكتب الا المنطق ولا يحمد الا الواقف ولا يستجيد منها الا السائر وهذا هو المشهور من افعالهم والموصوف من اخلاقهم . »

« ومن الدليل على ذلك انه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ولا علمه تفسيره ولا التفقه في الدين شعاره ولا الحفظ للسنن والاثار عماده. فان وجد الواحد منهم ذاكرا شيئا من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ولا المحبة (هكذا في الاصل) منه حلاوة ، وان آثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث ،والتشاغل بذكر كتب المتفقهين استفظله اقرانه واستزخمه الافة وقضوا عليه بالادبار في معيشته ،والحرقة في صناعته ، حين حاول ما ليس من طبعه ورام ما ليس من شكله (١)

ولم تظل معرفة هذه الاثار الفارسية منحصرة في طبقة الكتاب بل تعداها الى غيرها فاصبحت جزءا للثقافة العامة في ذلك العصر ومطلوبة خصوصا من الشخصيات التي كانت متصلة بالخلافة كالعمال والمعلمين واشباههم . يحضر عمر بن هبيرة اياس بن معاوية المزني ليوليه فيسئله هل تقرأ القرآن ، وتفرض الفرائض فيقول نعم ويسئله ايضا هل تعرف ايام العرب فيجيبه بالايجاب ثم يقول له فهل تعرف من ايام العجم شيئا فيقول اياس انا بها اعلم فيوليه (٢) ومما قاله الرشيد للكسائي وهو معلم اولاده " ياعلي بن حمزه قد احللناك المحل الذي لم تكن تبلغه همتك فرونا من الاشعار اعفها ومن الاحاديث اجمعها لمحاسن الاخلاق وذاكرنا بايام الفرس والهند ولا تسرع علينا الرد في ملاء ولا تترك تثقيفنا في خلاء (٣) وهكذا نرى الكتب الادبية المؤلفة في العصور الاولى الاسلامية موشحة باقوال الفرس واراثهم كما انها مشحونة بالامثال والحكم الفارسية.

---

١) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٢ – ٤٣ (٢) عيون الاخبار ١ – ١٨

(٣) ابن ابي الحديد ٤ – ١٣٧ (ضحى ١ – ١٧٢)

والحقيقة ان الكتب الادبية تمثل الفرس وماثرهم بصورة تختلف تمام الاختلاف عما تصورهم الكتب الدينية الاسلامية فبينما تنظر هذه الكتب الدينية الى الفرس الزردشتيين نظرة مسلم الى مجوسي ، تجد الكتب الادبية تمثلهم كقوم ذوي عقول راسخة ومدنية قديمة واصحاب علوم واداب جديرين بان يقتفى اثرهم ويدرس اثارهم فتقرا في هذه الكتب امثال بزرجمهر وحكم الموبذ واراء اردشير وانوشروان بجانب ما يروى من اخبار الصحابة واحاديث ائمة المسلمين وما الى ذلك من غير ان تشعر بذلك الفرق العظيم الذي يوجد بين هاتين الطبقتين من الوجهة الاسلامية .

الكتاب في مظاهرهم الخارجية

ولا يتعجب القارئ بعد ما مر معنا في هذا الفصل والفصول المتقدمة ان يرى كتاب الخليفة يتبعون في سلوكهم ومظاهرهم الخارجية نفس الطريقة التي كان يتبعها كتاب الاكاسرة فقد كان من رسم ملوك الفرس ان يلبس اهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها احد ممن في غير تلك الطبقة فاذا وصل الرجل الى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقة التي هو فيها فكان الكتاب في العصر يلبسون لبستهم المعهودة (١) فاخذ كتاب العباسيين نفس الطريقة ولبسوا لبسة خاصة بل تعدوا ذلك الى رسوم اخرى بعيدة كل البعد عن حياة العرب والاسلام. قال الجهشاري « ان الفضل بن سهل بن زادان فرخ ـ ذا الرياستين ـ كان يجلس على كرسي مجلس يتحمى به اذا اراد الحضور عند المامون ويراه حتى تقع عين المامون عليه فاذا وقعت عين المامون عليه نهض الكرسي ونزل عنه فمشى وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المامون ثم يسلم ذو الرياستين

(١) الجهشاري ٣ و ٤ (ضحى ١ ـ ١٦٩)

ويعود فيقعد عليه « الى ان قال = المكرمجي وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك الى مذهب الاكاسرة فان وزيرا من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين ايديها عليه ويتولى حمله اذنا عشر رجل من اولاد الملوك (١) ولا شك انه كان لكل ما ذكرناه في ضمائر الكتاب ومن يحذوا حذوهم في اسلم من اصولهم وثقافتهم ومظاهرهم وما لاحظناه في كلام الجاحظ من حرية الراى التي كانوا يبدونها في نقد الاصول التعبدية الاسلامية وتاييدهم للعقل والمنطق وما شاكل اثر كبير في انتقاد المعاصرين اياهم ورميهم بالزندقة والالحاد او بالنزعة الشعوبية مما كان يتهم به الفرس عادة وقد راينا في كلام الجاحظ الذي مر بنا انموذجا من هذا الانتقاد ويرى المتامل في الكتب الادبية كثيرا من هذا القبيل . فقيل في ابن المقفع انه مر ببيت نار فقال =

يا بيت عاتكة التي اتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل (٢)

وقال البغدادي في وصفه « هو كاتب بليغ لكنه زنديق (٣) وعندما اراد المنصور قتله كان اقرب التهم اليه الزندقة . وقال الاصمعي في حق البرامكة .

اذا ذكر الشر في مجلس اناروا وجوه بني برمك
وان تليت عندهم آية اتوا بالاحاديث عن مردك (٤)

وكان يدعي سهل بن هارون بزرجمهر السوء لحمقه وعقله (٥) واتهموه بالشعوبية والعصبية على العرب (٥) وكانوا يرمون بالزندقة محمد بن السيب الخطيب وهو من المنقطعين الى البرامكة وابا عبيدة الريحاني وله من الكتب الفارسية ما مر بنا . وقال ابو نواس في قصيدة يهجو بها ابان بن عبد الحميد اللحقي عن لسانه

لا اشهد الدهر حتى تعاين العينان
فقلت سبحان ربي فقال سبحان ماني

---

(١) الجهشاري ٤٠١ و ٤٠٢ (ضحى ١ – ١٦٩) (٢) عيون الاخبار ١ – ٥١ (٣) خزانة الأدب ٣ – ٤٥٩
(٤) عيون الاخبار ١ – ٥١ (٥) امراء البيان ١٦٢ (٥) الفهرست ١٢٠

الكتابة العربية وتطورها في القرن الثاني

الكتابة في الجاهلية ، النثر العربي في القرن الاول ، تطور الكتابة في القرن الثاني ، التطور من حيث المعاني والافكار ، التطور من حيث الاسلوب ، الطريقة الحميدية ، بعض ملاحظات .

لا شك ان الكتابة كانت معروفة عند بعض الاقوام العربية ممن اتصلوا بالامم المجاورة تجاريا او سياسيا او بغير ذلك من العلاقات كما كالتبابعة في الجنوب والمناذرة والغساسنة في الشمال ونجد في بعض القصائد المنسوبة الى العصر الجاهلي اشارة الى الكتاب الخ فما يدل على انهم كانوا يستخدمون الكتابة في شؤونهم الاجتماعية (١) اما البدو من سكان اواسط الجزيرة فقد كان خط الكتابة عندهم قليلا بناسب ما كان لهم من خط من الحضارة . يحدثنا اصحاب السير والتواريخ انه عندما جاء الاسلام لم يكن في قريش غير سبعة عشر رجلا وبضع نساء يكتبون ويقرأون ويستفاد من ذلك ان الكتابة لم تكن شائعة في العرب شائعها في غيرهم من الامم المعاصرة لهم كالفرس والروم ، فقريش اهم القبائل العربية واكثرهم تمازجا بالشعوب الاخرى عن طريق التجارة ، والذين عرف عنهم انهم كتبوا للنبي لم يكونوا كالذين اشتهروا بالكتابة فيما بعد فان ابن قتيبه عد حنظلة بن ربيعه انه « كتب للنبي » مرة كتابا فسمي بذلك الكاتب وكانت الكتابة في العرب قليلا (٢)

اختلف الباحثون في الادب الجاهلي في مسئلة وجود النثر الفني في العصر الجاهلي كاختلافهم في اكثر شؤون العرب في ذلك العصر فيرى بعضهم ان العرب الجاهلي لم يعرفوا النثر الفني وان كان لهم شعر نظرا الى ان الشعر اسبق الى الوجود من النثر وادنى منالا منه فالنثر لغة العقل والشعر لغة الخيال والخيال اسبق الى النمو في حياة الافراد والجماعات من العقل .

(١) راجع في الموسوعة الاسلامية ج ٢ ص ٨١٩ مقالة كتب للباحث Krenkow (٢) المعارف لابن قتيبه ١٥٣

فهناك كما يقول هؤلاء الباحثون صلة قوية جدا بين الحياة العقلية وحط النثر من القوة والضعف ومن الرقي والانحطاط ، فرقي النثر عند كل امة رهين برقي الحياة العقلية وانبساط سلطان الفلسفة على العقول ولما كان العرب الجاهلي يعيشون عيشة اولية لم تسمح حياتهم العقلية بان يكون لهم نثر طليق من قيود الوزن والقافية يصف الاشياء كما يشاء العقل لا كما تشاء الاشياء او كما تشاء الطبيعة . (١) وذهب اخرون الى انه كان للعرب قبل الاسلام نثر فني يتناسب مع صفاء اذهانهم وسلامة لباعهم ولكنه ضاع لاسباب اهمها شيوع الامية وقلة التدوين وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الاسلام ودونها القران « لانه ليس بمعقول عندهم – ان يكون لاكثر الامم التي جاورت العرب او عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان نثر فني قبل الميلاد باكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون (١)

ولكن الواقع انه لم يصل الينا من نصوص النثر الجاهلي ما يمكننا الاعتماد عليه في درسنا لهذه الناحية من حياة العرب فالظاهر ان ما نسبه مورخوا الادب الى الجاهليين من المنثور كان مما اخذ بالمعنى ولو انعمنا النظر في بعضها لما احجمنا عن القول بانها واهية الاسناد ظاهرة التصنع (٣) هذا وقد عمد بعض اساتذة العصر اعتمادا على ما نقله رواة الادب القديم وعلى ما يستفاد من القران وهو خير مصدر لفهم الحياة الجاهلية في مختلف نواحيها – الى فرز النثر الجاهلي بطريقة علمية فنتج عن ذلك ما يلي .

١ – كان للجاهلية القريبة من الاسلام اسلوب مسجع عرف به الكهان وشاع في الخطابات الدينية وما اليها وهذا الاسلوب ما نرى امثله منه في السور القرانية – ولا سيما الاولى منها – وما جعل العرب ينسبون الى النبي الكهانة لما حسبوه متقاربا في الاسلوب بين هذه الايات وبين ما عهدوه من اقوال كهانهم. (انظر الاغاني ج ٢ ص ٩) وهكذا نرى الميل الى التسجيع باديا في الخطب الدينية منذ صدر الاسلام. وهذا النثر المسجع وان لا يرقى الى مقام النثر المطلق بل هو واسطة بين الشعر وبين النثر الا ان السجع اصبح من فنون الاساليب النثرية في العصور المتاخرة في الاسلام.

---

(١) هذا ما يراه الدكتور طه حسين ويوافق ذلك نظرية بعض المستشرقين. راجع كتاب (الشوقي والحافظ) ٦٣ – ٦٨ وكتاب الاستاذ نيكلسن ص ٣١

(٢) هذه نظرية الدكتور زكي مبارك في مقدمة كتابه (النثر الفني) ٢ امراء البيان ١ – ٩ .

٢ ـ ان النثر المرسل ونعني به ما كان يرسل على السجية دون تعمل خاص قديم في الادب العربي نراه في عهد النبي ويحملنا الاستنتاج العقلي على انه كان في الجاهلية ايضا اذلا يعقل ان تبلغ قريش مثلا في جاهليتها بما بلغته من التقدم التجاري فيكون لها اتصال باليمن والشام والعراق وفارس ولا يكون لها من نثر غير الاسجاع التي تعبر عن العواطف الدينية والنظرات الاخلاقية . ففي القرآن اشارات عديدة الى حياة مكة والمدينة الاقتصادية والاجتماعية وهناك عشرات بل مئات من الايات التي ترد فيها معاني التجارة والبيع والدين والخسارة والاحصاء والرهن والكسب وما الى ذلك من مظاهر الحياة الاقتصادية يقترن بذلك استعمال الكتابة وفي القرآن نفسه نصوص لا تترك مجالا للريب مجالا للريب في معرفة العرب للكتابة واستخدامهم اياها في مرافق حياتهم . فهذه الحالة الاقتصادية التي وجدت فيها قريش كانت تقتضي نثرا غير النثر الديني اي نثرا مرسلا للتعامل مطلقا من قيود الصناعة اللفظية (١)

النثر العربي في القرن الاول

لم يكن القرن الاول الاسلامي ملائما في جملته لتقدم الكتابة العربية وتوسيع دائرتها (٢) فلم يهتم العرب في هذا القرن بالتاليف والتدوين ولم يستنتجوا من التعاليم الاسلامية ما يرغبهم في ذلك بل كانوا يرون عكس ذلك فظنوا ان هذا العمل مخالف للقرآن والشريعة. وقد نشأ في هذا العصر بعض المعارف وظهر تباشير علوم عرفت فيما بعد بالعلوم الاسلامية كالقراءة والحديث والتفسير والفقه وما الى ذلك مما قد تشعب في القرون التالية الا انهم كانوا ينقلونها شفهيا كما انهم كانوا يروون شفهيا الاشعار والقصائد المروية عن شعراء الجاهلية او الاسلام. فلم يكن يلذ بكلام بعد كلام الله ان يدون ولو كان هذا الكلام حديثا نبويا او تفسيرا للقرآن بل كان هذا المنع اشد فيما يتعلق بالكتب الدينية (٣)

---

(١) تجد مفصل ما اختصرناه في كتاب تطور الاساليب النثرية للاستاذ انيس المقدسي ص ١ – ١٠

(٢) نيكلسون ٢٤٢ (٣) اريك ليفرتير ٢٩ – ٣٠

فاقدم كتاب وصل الينا في النثر العربي بعد القران كتاب السيرة تاليف محمد بن اسحق وكتاب الانساب تاليف ابن الكلبي الذي يوجد مخطوطة عنه في مكتبة المتحف البريطاني .وقد ورد في المخطوطة بناء على ما ذكره (دجوى) في مقالته المنشورة في الموسوعة البريطانية (١٨٨٨) في موضوع الطبري ان مطالب الكتاب ماخوذة عن رجال العصر الاول كابي هريرة وعبد الله بن عمر بن العاص الزهري والحسن البصري الذين اوصوا بان تحرق بعد وفاتهم ما كتبوه كمذكرات لانها تخل بالذاكرة .

ويرى جولدزيهر ان المسلمين حتى في القرن الثاني بعد الهجرة كانوا يجتنبون في تدوين علومهم حتى ان عبد الرحمن بن حرملة الاسلمي المتوفي سنة ٧٦٢ للميلاد اضطر ان يطلب الرخصة من معلمه سعيد بن المسيب ليجيز ان يكتب كل ما يمليه عليه وذلك لعلة ضعف في ذاكرته . ويرى الاستاذ برون ان هذا المنع من تدوين الاحاديث كان لسببين الاول الخوف من ان الكتب التي تدون فيها تلك الاحاديث لم تعامل بالاحترام الذي يليق بكلام النبي والثاني الخوف من ان ينظر الى هذه الكتب كانها كفاء للقران هذا ولكن لم تكن هذه النزعة عامة بين جميع المسلمين بل كان هناك طائفة اخرى تدعو الى تدوين العلوم خوفا من ضياعها (١) على كل حال ليس لهذه الناحية من الحياة الاسلامية اثر كبير في تقدم النثر طيلة القرن الاول

ظل الديوان المركز الوحيد تقريبا للكتابة العربية في القرن الاول كما انه اصبح اهم مركز لها في كل العصور الاسلامية وكان في حضان الكتاب حيث اخذ النثر يتقدم شيئا فشيئا وتتسع دائرة استعمالها في الحياة العربية يوما عن يوم . ومن يتامل في النثر العربي ويتابع سيره منذ بدء الاسلام حتى عصر ازدهاره في العصر العباسي يرى ان لتقدم النثر والكتابة عموما صلة وثيقة بتقدم امر الديوان وانتشار الثقافة الادارية وقد رايتنا فيما سبق ان الثقافة في ادوارها المختلفة التي مرت علينا في الاسلام وبالطبع الباحث ان يميز نفس الادوار والمراحل في النثر ويلاحظ اثرها فيه.

---

(١) برون ١ – ٢٧٢ – ٢٧٣

احتفظت الكتابة العربية في القرن الاول على وجه الاجمال بالخصائص التي كانت تتميز بها في العصر الاول . اي عصر الصحابة والتابعين من حيث اسلوب البيان وطريقة التعبير وهذه الطريقة كما وصفوها تدور على ترفية المعنى واللفظ حقهما من البعد عن [illegible] الى الايجاز والسهولة يرسلون الكلام ارسالا يلفظ سمح ويخرج سهل [illegible] احاديثهم ابنة السليقة وسجية الفريزة خالية من كل ما هو متكلف متصنع (١) اما من حيث الاغراض والمعاني التي كانت تكتب فيها الكتب والرسائل فلا شك انها توسعت بانتشار الاسلام وظهور موارد جديدة للكتابة لم تعرفها العرب من قبل مما ادى بهم الى الكتابة في ضروب من الكلام جديدة في النثر العربي " ولكن الكاتبون لم يخرجوا بهذا عن طريقتهم المعهودة يتوسعون في المعاني للاقناع والتاثير ويبقون الالفاظ والتراكيب على النسج الذى عرفوه ، لا يكثرون من اللفظ الا بقدر ما يصورون من المعاني ولا يستخدمون من الكلمات الا النافعة في الاستعمال (٢)

يرى الباحث في تاريخ الدواوين الاسلامية وما بقي لها من اثر في الادب العربي انه ظهرت بنقل دواوين العراق والشام حركة في الكتابة العربية مهدت لها اقطد السبيل للتقدم في جميع نواحيها. وهذه الحركة وان كانت خفيفة في بدء عهدها الا ان لها اهمية كبرى من حيث تاثيرها في انتشار اللغة العربية وتسهيلها لتلك النهضة الواسعة النطاق التي سوف تظهر في النثر العربي منذ اوائل القرن الثاني. لقد مر معنا ان الدواوين نقلت الى العربية في عهد عبد الملك والحجاج ، يحدثنا الموخون ان الوليد ابن عبد الملك اول من اعتنى بامر الكتابة فجود القراطيس وجلل الخطوط وفخم المكاتبات ،وهذه اوب خطوة خطتها الكتابة العربية نحو التجدد في هذا القرن وهي له وان لم تقتفى بعد الوليد اذ ان عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد جريا في المكاتبات على طريق السلف.

---

(١) امراء البيان ١١

(٢) امراء البيان ١٧

واهمل ما سنه الوليد الا ان المتخرين من الخلفاء والكتاب الامويين عنوا بذلك عناية خاصة ظهر اثرها في القرن الثاني .

تطور الكتابة في القرن الثاني

يمتاز القرن الثاني للهجرة في تاريخ الادب بتطور عظيم حصل في الكتابة العربية قد يكون من اعظم تحولات حصلت في الادب العربي في جميع ادواره التاريخية فقد ظهر في هذا العصر اعلام في الكتابة كعبد الحميد وابن المقفع وامثالهما نهجوا في انشاء الرسائل والكتب منهجا لم يعرفه كتاب القرن الاول فقد احكم هؤلاء الكتاب اسس الكتابة العربية واتضحوا معالمها ونفحوا فيها روحا دفعتها الى الامام وجعلتها تتقدم بخطى واسعة حتى زاحمت الشعر في انتشارها واخذت من الذوق والفن بنصيبها الوافر . وظلت الاساليب التي ابتدعوها في النثر العربي متبعة في الحلقات الديوانية وذات تاثير عظيم في نفوس البلغاء والفصحاء بحيث اصبحت تلك الاساليب مثالا عاليا في الانشاء احتذاها كثير من الادباء والكتاب في مختلف العصور .

لم يكن هذا التطور نتيجة طبيعية لسير الكتابة في القرن الاول من دون تاثير مباشر لعوامل خارجية سيطرت على الكتابة في ذلك العصر وقد شهد بذلك بعض مورخي الادب مما سنشير اليه فيما بعد على ان مثل هذا التغير لا يتم عادة في تلك الفترة القصيرة التي مر بها النثر العربي منذ انتشار الاسلام خصوصا في امة محافظة قليلة الاختراع في لغتها واسلوبها اضف الى ذلك ان العرب لم يعتموا في القرن الاول بالكتابة اهتماما يوجب مثل هذا التحول ونحن وان لا يسعنا ذكر هذه العوامل بالتفصيل الا ان من الواجب علينا الاشارة اليها ولو بالاجمال .

اجمع الباحثون في الكتابة العربية من القدماء والمحدثين على القول بان زعيم الحركة الفكرية وحامل لواء التجدد في اساليب الكتابة في القرن الثاني اثنان احدهما عبد الحميد يحيى كاتب مروان اخر الخلفاء الامويين وثانيهما ابن المقفع الذي كتب لعمال الخليفة وقتل في عصر المنصور . فقد اشتهر الاول باختراع طريقة فنية في الكتابة عظمها معاصروه ومن اتى بعده بحيث قالوا "بدات الكتابة بعبد الحميد" .

كما اشتهر الثاني ببراعة اسلوبه وحكمته وحسن تعبيره عن افكاره وبرسائله التي هي اول من نوعها في الادب العربي . اذا فيجب ان نبحث عن هذه العوامل في ثقافة هذين العلمين والعناصر المكونة لها .

لقد رأى القارئ فيما مر بنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب مقدار تاثر ابن المقفع بالثقافة الفارسية ولسنا بحاجة ان نكرر هنا ما ذكرناه فابن المقفع من اكابر الاعلام في الادب الفارسي وهو في هذه الناحية اعرف من ان نحتاج الى ذكره واما عبد الحميد فعلاوة على ما ورد في الروايات القديمة من التصريح باصله الفارسي (١) ومعرفته للغة الفارسية وتغلغله في اسرار هذه اللغة ودقائق اساليبها (٢) تدل ايضا اثاره مع قلة ما وصل الينا منها ان الرجل لم يكن اقل حظا في الثقافة الفارسية من زميله وصاحبه ابن المقفع . ومهما بالغنا في البحث والاستقصاء في اثار هذين العلمين وفيما وصل الينا من الروايات الادبية والتاريخية لا نستطيع ان نميز في ثقافتهما عنصرا اخر غير الفارسية والعربية فان نسب الى ابن المقفع ترجمة كتب في المنطق فانه انما ترجمها عن الفارسية (٣) وقد كان الفرس قد ترجموا في عهد الساسانيين عدة من الكتب اليونانية على ان العناصر اليونانية لم تكد تظهر في الادب العربي الا بعد قرون ولم يكن تاثير هذه العناصر في الادب جوهريا في اي عصر من العصور كما لا يخفى ذلك على الباحث في هذا الادب المتامل في تحولاته .

اضف الى ذلك ان هذه الحركة في الكتابة العربية ظهرت في عصر كانت فيه ترجمة الاثار الادبية الفارسية على قدم وساق وكان يوجد في تلك الاثار كما مر بنا وسيمر فيما بعد ماله علاقة مباشرة بالاساليب الكتابية . واذا تذكرت مع كل ذلك ان زعماء هذه الحركة انفسهم من الذين قاموا بترجمة هذه الاثار وساعدوا في انتشارها يظهر لك جليا العوامل الفعالة في تحول النثر العربي .

---

(١) الاصطخري ١٤٥

(٢) العسكري (الصناعتين) ٥١

(٣) الفهرست ٢٤٣

والواقع ان الكتابة الفارسية تمتعت بشهرة واسعة في العصور الاولى الاسلامية بحيث كانت تعد مثلا اعلى في الكتابة وكانوا يمثلون بها فيما قاله عبد الملك في رهط من المشهورين بالخطابة والعلم والسياسة انه شامي الطاعة عراقي الخط حجازي الفتة ، فارسي الكتابة (١) مما يدل على ان العرب بدأوا يتعرفون الاساليب الفارسية منذ اواخر القرن الاول . على ان ما يصرح بان طريقة عبد الحميد ماخوذة من الفارسية هو ما ذكره العسكري في الصناعتين وقد اورد هذه العبارة بنصها او فحواها كل من ترجم لعبد الحميد تقريبا ونحن نذكرها ايضا تتميما للفائدة قال العسكري " ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الالفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقد الى لغة اخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الاولى . الا ترى ان عبد الحميد الكاتب استخرج امثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي (٢)

بقي لنا ان نلقي نظرة على هذه الطريقة او الاساليب الفارسية التي ظهرت في الكتابة العربية لنحللها في اجزائها ونميز العناصر المختلفة فيها لو امكننا ذلك ونجدنا اليه سبيلا .

خذ رسالة من انشاء عبد الحميد او ابن المقفع او غيرهما ممن جاراهما في الاسلوب . قابلها باي رسالة اخرى من انشاء القدميين تجد بينهما فرقا كبيرا . اقرأ هاتين الرسالتين ثانية وحاول ان تبين موضع الفرق والاختلاف بينهما تشعر في بادئ الامر بصعوبة في نفسك لبيان هذا الفرق بكلمة جامعة وذلك لان الفارق بينهما ليس شيئا واحدا بل هناك فروق عديدة لا يمكن التوصل الى معرفتها الا بعد تجرد عقلي وتحليل للاجزاء المؤلفة لهما والتامل في نواحيها المختلفة .

فاذا قرأت قطعة من عبد الحميد او ابن المقفع واعجبت بهما فان شيء يروقك منها اروعة الفن وجمال الاسلوب او دقة المعنى وحسن التعبير او نهالة الموضوع وفخامة الافكار او شيء اخر غيرهما .

---

١) امراء البيان ٢١ (٢) الصناعتين ٥١

والواقع ان ذلك كله مما اثار اعجابنا بهما . فليس اسلوب هذين الكاتبين من حيث اتزان العبارات او السهولة والوضوح وما شاكل الذي يميز رسائلهما عن غيرهما فقط ولا ما تراه فيها من حيث الدقة والترتيب فحسب بل هنالشيء اخر قد يكون اهم من هذا وذاك وهو ان المعاني والافكار التي تجدها في هذه الرسائل هي ايضا جديدة في العربية كل الجدة . فمن يتامل في منشاتهما يجد انهما وضعا في كل باب طرقاها خطا جديدة لا يرى لها مثيل في هذه اللغة من قبل وليس في الناحية السياسية والادارية فقط حيث وضعوا قواعد مهمة واصولا كلية بل ابوابا لجديد حتى في النواحي التي كانت معروفة عند العرب . فالطريقة التي سلكها ابن المقفع مثلا في سرد المواضيع الحكمية الرامية الى تهذيب الاخلاق واصلاح النفوس كانت غير معهودة في الادب العربي وان لم تقل في هذا الادب المواضيع الحكمية والاشعار الاخلاقية .

وبعبارة اخرى يجد القارئ في منشات عبد الحميد وابن المقفع نفسا امام عقلية واسعة تجول في محيط افسح مما كانت تجول فيه عقلية الاقدمين من الكتاب ولا يخفى ان هذه الناحية ايضا جديرة بالملاحظة لمن يحاول درس الكتابة العربية وتطورها في مفتتح القرن الثاني . ولذلك نقسم بحثنا هنا الى قسمين الاول في المعاني والافكار الحديثة التي تجلت في هذا التطور والثاني في الاساليب النثرية التي نتجت عنه .

التطور من حيث المعاني والافكار

قد يتساءل الباحث هل اخترع عبد الحميد وابن المقفع كلما كتباه من مختلف النواحي من ادارية او غير ادارية او انهما اتبعا الاقدمين فيما رسماه ولم يكن ما انتجاه في العربية الا نقلا منهم وترجمة عن الآثار الفارسية الشابهة التي كانت بمتناولهما .

والحقيقة اننا لا نستطيع ان نجيب هذا السوال بالقطع فليس عندنا من الدلائل التاريخية ما يؤيدنا في القول الثاني كما انه لا تساعدنا المعلومات التي وصلت الينا من ذلك العصر في الاعتقاد بعدم وجود

اثار فارسية في منشاتهم ولعل من الخير ان نقارن الاجمال بين ما وصل الينا من اثار هذين الكاتبين وبين ما ورد في الكتب الادبية فيما يتعلق بالكتب والرسائل المشابهة الفارسية التي كانت بمتناول الادباء في ذلك العصر ، علّه يلقي ضوءا ولو ضئيلا على هذه الناحية من النثر العربي .

تضطرنا هنا ان نرجع بالقارئ الى ذلك القسم من مقالتنا هذه الذي شرحنا فيه ثقافة الكتاب وخاصة الى ما ذكرنا ، في الاثار الادبية الفارسية التي نقلت الى العربية . لقد راينا في هذا القسم ان في ضمن الكتب الفارسية كان يوجد عدد غير قليل من الرسائل التي كان لها علاقة مباشرة بالكتابة ولطبقة الكتاب كما انه كان في ضمنها قطع ادبية معروفة بالبلاغة والبيان . واذا راجعنا الى ما وصل الينا من مقتطفات هذه الرسائل والكتب او مما ذكره فيما من شاهدها وقراءها نرى انها لا تختلف عما نقراه في اثار عبد الحميد وابن المقفع اختلافا كبيرا لا في مواضيعها واغراضها ولا في الروح السائد عليها . وقد ذكرت عن بعض هذه المقتطفات في غير هذا الموضع (١) فلا نطيل بذكرها هنا ، ويرعيدنا فيما لم يصل الينا من تلك الرسائل/ا ما نجده احيانا من تصوير او اشارات في بعض المصادر . فالجاحظ مثلا عندما يعارض الشعوبيين في تفضيلهم لبلاغة العجم يقول " ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التي في ايدي الناس انها صحيحة وغير مصنوعة وقديمة غير موَلدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وابي عبد الله (٢) وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل لم تكن تختلف عن اثار هؤلاء الكتاب الذين ذكرهم الجاحظ لا من حيث الاغراض والمعاني ولا من حيث البيان والبلاغة ، كما يستفاد منه انهما كانت منتشرة في الطبقات الادبية في عصر الجاحظ .

السير ١٢ (٣) فيؤخذ من هذا النص ان عبد

لقد مر معنا في الفصل السابق ذكر ما الفه ابن المقفع في الادب كاليتيمة والادب الكبير والصغير

---

(١) راجع ما كتبته في (ابن قتيبه وعيون الاخبار) مقتطفات عن الكتب الفارسية الاتية ، الاثين ، التاج ، كتاب ابرويز الى ابنه ، كتاب ابروزيز الى بزرجمهر ، خداى نامه وغيرها ص ١٨ – ٣٥

(٢) وهو على ما في الذيل محمد بن يزداد بن سويد الكاتب

(٣) البيان والتبيين ، ٣ : ١٢

ورأينا قرابتها من الآثار الفارسية من نوعها بحيث عدها البعض ترجمة عنها وذكرنا شهادة ابن المقفع نفسه باقتفاء معاصريه اثر الأقدمين في تآليفهم ونريد ان نضيف هنا على ما اوردناه سابقا ما نجده في اقوال ابن المقفع في بلاغة معاصريه. قال في كتابه الأدب الصغير ما نصه « فاذا خرج الناس من ان يكون لهم عمد اصيل وان لا يقولوا قولا بديعا فليعلم الواصفون المخبرون ان احدهم وان احسن وابلغ ليس زائدا على ان يكون كصاحب [illegible] وانا نبين [illegible] الى ان يقول « فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه او يستحسن منه فلا يعجبن به اعجاب المخترع المبتدع فانه انما اجتباه كما وصفناه (١) فهذا الكلام ينم بانه لم تكن مهمة الكتاب والبلغاء عند ابن المقفع الا اخذ المطالب والمواضيع مما وصل اليهم من كلام الاقدمين ثم تنظم هذه المعاني وافراغها بمطالب عربي بارز ذوق العرب والبيئة الاسلامية . وهذه الطريقة هي التي اتبعها ابن المقفع نفسه في بعض ما نقله عن اللغة البهلوية فنراه يضيف الى اصل مطالب الكتاب احيانا شواهد وامثال من القرآن ومن اقوال علماء الاسلام ليبعدها مما امكن عن البيئة الزرادشتية التي وضعت فيها (٢) ولعل ذلك هو السر في بقاء بعض اثاره المترجمة دون غيره من المترجمين.

لم تحفظ لنا المصادر العربية من اثار عبد الحميد بالرغم من شهرته الواسعة شيئا كثيرا فاهم منشاته التي وصلت الينا اثنان احدهما رسالة كتبها عن مروان اخر الخلفاء الامويين الى عبد الله ابنه وولي عهده والثاني رسالة كتبها الى كتاب عصره يوصيهم فيها بما يجب عليهم رعايتها.

---

(١) رسائل البلغاء ص ٢١ – ٢٢ على رسالة نصر

(٢) راجع مقدمة دار مستتر ص ١٨٨ – ١٩٢

واذا تابعنا درسنا لهاتين الرسالتين نعثر فيهما على مواضيع تنم عن اثر فارسي قد يظهر فيها الى حد بعيد . فالرسالة التي كتبها الهولي العهد لا يخرج موضوعها من اشتمالها على اغراض كثيرة عما نسميه السياسة الملوكية او ادب السياسة . فعبدالحميد - كما وصفه بذلك بعض الباحثين وضع في هذه الرسالة ببيانه الرائع "خططا حربية ، وطرقا جديدة في النظام والادارة والسياسة وقواعد مهمة في التربية ولا سيما في تربية الملوك والعظماء واصولا كلية في علم النفس والعادات المستحبة ومعاملة المرووسين وطلب الجم الحاجات وارباب السعايات واصحاب الاخبار (١) واذا راجعنا الى الآثار الفارسية التي وصلت الى العرب في ذلك العصر نرى ان هذا النوع من الرسائل المكتوبة من الملك الى ولي عهده كثيرة مستفيضة فيها وقد مر معنا ذكر بعضها . ولم تبعد هذه الرسائل على ما نعرف عنها ويدل عليه بعض المقتطفات التي احتفظت منها (٢) عما نراه في هذه الرسالة من الاغراض والمقاصد وقد ظل هذا النوع من الرسائل شائعا في الاسلام ومن جملة ما نسب الى المسلمين من ذلك كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله التي قال المامون عنها لما قرأت عليه "ما ابقى ابو الطيب يعني طاهرا شيئا من امور الدنيا والدين والتدبير والراي والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخاصة الا وقد احكمه واصى به" وبلغ اعجابه بها بحيث امر ان يكتب بها الى جميع العمال في النواحي ليقتدوا بها ويعملوا بما فيها (٣)

ولو وصلت الينا تلك الرسائل الفارسية في اصولها فلربما اننا كنا نجد اثارا كثيرة منها في هذا النوع من الرسائل التي انشئت في الاسلام .

---

١) امراء البيان ٥١

(٢) راجع مقتطفات رسالة كسرى ابرويز الى ابنه شيرويه في عيون الاخبار ج ١ ص ١٧ و ٣٠ و ٥٩ و ٢٨٨ و ٣٢٨

(٣) مقدمة ابن خلدون ٢٨٧

في كتاب عيون الاخبار عبارة قصيرة في وصف الكتاب عن لسان الموء بزان يظهر ان ابن قتيبه اقتطفها عن كتاب او رسالة فارسية في هذا الموضوع منسوب الى احد الموابذة . وما في هذه العبارة هو اهم بهة التي نزاها بينها وبين مقدمة رسالة عبد الحميد الى الكتاب مما يقرب الى الذهن يهمنا هنا الآن ان هذه العبارة ايضا كانت مقدمة لرسالة في هذا الموضوع .

وعلى كل يرى المتامل في هاتين العبارتين ان الروح السائد عليهما واحدة وانهما وان اختلفا في كيفية التعبير عما هو ناشيء في الاغلب عن اساليب البيان الا انهما منبعثان من مصدر واحد بل تبلغ هذه المشابهة الى درجة احيانا لا يستطيع القارئ معها ان يرى تاثير الواحد بالاخر واضحا فيهما ونحن نتفق فيما يلي ما ذكره ابن القفطي عن عبارة الموبذان وقسما من رسالة عبد الحميد في نفس الموضوع .

قال الموبذان

« كتاب الملوك اعينهم المصونة عندهم واذانهم الواعية والسنتهم الشاهدة ، لانه ليس احد اعظم سعادة من وزراء الملوك اذا سعدت الملوك ولا اقرب هلكة من وزراء الملوك اذا هلكت الملوك فترفع التهمة عن الوزراء اذا صارت نصائحهم للملوك نصائحهم لانفسهم .

وتعظم الثقة بهم حين صار اجتهادهم للملوك اجتهادهم لانفسهم فلا يتهم روح على جسده ولا يتهم جسد على روحه لان زوال الفتهما زوال نعمتهما وان التئام الفتهما صلاح خاصتهما (١)

---

(١) عيون الاخبار (٤٧)

وقال عبد الحميد مخاطبا الكتاب =

« بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك امورهم وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، ويجتمع فيئهم وتعمر بلادهم ، ويحتاج اليكم الملك في عظيم ملكه والوالي في القدر السنى والدنى من ولايته ولا يستغنى عنكم منهم احد ولا يوجد كافالا منكم ،فموقعكم منهم موقع اسماعهم التي بها يسمعون ،وابصارهم التي بها يبصرون والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها يبطشون ، انتم اذا آلت الامور الى موائلها وصارت الى محاصلها ،ثقافتهم دون اهليهم واولادهم وقراباتهم ونصائحهم (٢)

فبمقابلة هاتين القطعتين لا يبقى مجال للشك ان عبد الحميد تاثرفي كتابة هذه الرسالة بما وجده عن هذا الموضوع في مصادره الفارسية وقد يمكن ان يقال في تاييد ذلك ايضا ان الكتابة لم تكن تصل بعد في ذلك العصر من الاهمية والتغلغل في امور الدولة بدرجة توحى الى عبد الحميد ذلك الوصف الذى يصدق في الغالب على الكاتب في عهد وزارته كما كان في عهد الاكاسرة والعباسيين . كما ان في سياق العبارة ما يدعو الى الملاحظة وهو انه قلما يعهد عن اثار العهد الاموى وخصوصا ما يبقى منها بمعزل من الموثرات الخارجية ان يذكر فيها الملك والملك بدل الخلافة والخليفة.

---

(٢) صبح الاعشى .

وقد اشتهرت هذه الرسائل الفارسية عند العرب باسامي تدل على انهم قدروها حق قدرها ونظروا اليها كمادة لثقافتهم فكثيرا ما تجد في المصادر العربية عبارات «اداب الفرس» و «بلاغة العجم» و «معاني العجم» . وما شاكل من الالفاظ التي تظهر الناحية المعنوية منها. ويصرح بذلك ايضا بعض الروايات التاريخية منها ما ذكره ليفور في تاريخ بغداد واورده الاستاذ احمد امين في ضحى الاسلام (١) خلاصته ان العتابي يصف ليحيي بن الحسن كتابته لكتب العجم التي كانت توجد في الخزانة بمرو وقال يحيي بن الحسن «قلت ابا عمرو لم كتبت كتب العجم، فقال لي وهل المعاني الا في كتب العجم والبلاغة . اللغة لنا والمعاني لهم» وقال الاستاذ احمد امين بعد ذكره هذه الرواية ما يلي «كان العتابي اذا مثقفا ثقافة فارسية، وانت اذا قرات شعره ونثره تبينت منه انه كان اديبا ممتازا = غزير المعاني على حين ان كثيرا من الشعراء اشعارهم جوفاء . تقراء له مثلا في العقد الفريد قطعا نثرية غزيرت معانيها ودق اسلوبها وتقراء له شعرا مطبوعا في فنون مختلفة من فنون الشعر فيذكر هنا بعض اشعاره الرائعة كما يذكر بعضا من الحكم المنسوبة اليه التي تشبه حكم ابن المقفع وتذكرنا ذلك النوع من الحكم الفارسية التي كانت شائعة في الادب البهلوي.

---

(١) ضحى الاسلام ١ – ١٨٠ – ١٨١

التطور من حيث الاسلوب

ظهر في الكتابة العربية بظهور عبد الحميد وابن المقفع ، بجانب ما ظهر فيها من تحول في المعاني والاغراض تطور عظيم من حيث الاساليب النثرية وطرق التعبير ، اشتهر كل واحد منهما بطريقة خاصة في الكتابة ظلت متبعة بعدهما طيلة قرون .

اشتهر ابن المقفع باسلوبه المرسل ولم يكن هذا الاسلوب من مخترعاته اذ كان النثر المرسل الطابع العام للكتابة والخطب منذ انبثاق الاسلام ولكن الطريقة التي اتبعها ابن المقفع في تاليف كتبه جديدة في العربية اذ هو اول من استخدم النثر العربي في تاليف كتب منتظم النظام مرتبة المعاني كلها من انشاء رجل واحد فلم يوءلف في العربية قبل ابن المقفع كتاب من هذا النوع ولا تمثل الكتب المدونة في القرون الاولى الاسلامية انشاء موءلفيها في شيء كما انها لا تمثل اسلوبا ادبيا بالمعنى الذي نقصده من هذه الكلمة فهي عبارة عن مجموعة اخبار واحاديث او مقتطفات من رسائل او كتب نقلت عن رواة او اقتطفت من خطب ورسائل روعيت فيها المحافظة على الاقل من حيث صوغ العبارة لم يزد الكاتب او الموءلف عليها غير قوله حدثنا او اخبرنا او ما اشبه ذلك مما اصطلحوا عليه في رواية الاخبار ولم تكن الكتابة حتى القرن الثاني تستخدم الا في انشاء رسائل موجزة على ما هو الطابع العام في العهد الاموي .

الطريقة الحميدية

اما عبد الحميد فقد اجمع مورخو الادب على انه صاحب طريقة جديدة في الكتابة وموءسس مدرسة خاصة في الاساليب النثرية فقال صاحب العقد انه اول من فتق اكمام البلاغة وسهل طرقها (١) ووصفه المسعودي

---

(١) العقد الفريد ٢ ـ ٢٠٦

يقوله " هو اول من اطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس بعده (١)

ومدح ابن النديم بان طريقته طلت متبعة بعده بقوله " وعنه اخذ المترسلون ولطريقته لزموا وهو الذي سهل سبل البلاغة في الترسل (٢) واشتهرت هذه الطريقة بالفارسية وقدمر معنا قول العسكري في ان عبد الحميد استخرج امثلة كتابته من اللسان الفارسي .

لقد بحث في اسلوب عبد الحميد وطريقته المشهورة بعض اعلام العصر ممن قولهم حجة في الادب ولعل ادق دراسة في هذا الموضوع هو ما نجده في كتاب تطور الاساليب النثرية لاستاذنا المحقق انيس المقدسي اردان انقل بعض اقسام منها باختصار يليق بمقالة كهذه .

يرجح الاستاذ ان يكون اشتهار عبد الحميد بهذه الطريقة دون عبد الله بن المقفع مع كونه اولى بان يكون صاحب الرسوم الفارسية لشدة اتصاله بالادب الفارسي وكثرة نقله عنه فناشيء عما راوه من الفرق في اسلوبهما . فابن المقفع يميل في كتابته الى ارسال الكلام دون ان يتقيد بازدواج او توازن فلا يخرج بذلك عن الاسلوب العام في القرن الاول " واما عبد الحميد ففي طريقته يجري مجرى الازدواج والتبسط وبذلك يخرج عن مجرى الانشاء العام لعهده " فهن التوازن هو الرسم الذي اخذه عن الفرس حتى قيل فيه ما قيل .... يجوز ذلك الاستاذ اذا صح امران =

١ - اذا كان التوازن هو اسلوب النثر الفارسي العام ايام عبد الحميد او ما قبله

٢ - اذا كان التوازن غير معروف في النثر العربي القديم .

---

(١) مروج الذهب ٦ - ٢٨٦ (٢) الفهرست ١٧

اما الاول فليس لدينا من النصوص الفارسية القديمة ما يحملنا على القول به وليس فيما ذكره مورخو الادب الفارسي ما يشعر بوجوده واما الثاني فغير صحيح لان التوازن بل الازدواج موجود في النثر العربي منذ اقدم ازمانه وينخلص نظرية الاستاذ في ان عبد الحميد لم ينقل رسمه عن الفارسية ولكنه اتخذه اسلوبا عاما لرسائله فجعله بذلك طريقة انشائية مقررة واما الذي نقله عن الفارسية مما لم يكن شائعا في الترسل العربي سابقا فهو التمهيدات الطويلة والتبسط في عرض الفكر ويجاري الاستاذ محمد كرد علي فيما ذكره في وصف رسائل عبد الحميد من قوله "واكثر ما بدا في تضاعيفها الاطالة في غير ما امل من نجع وترصين ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة فيما بلغنا مالوفة في عامة دور الامويين لان هؤلاء عرب افحاح وكتابهم على شاكلتهم يحاولون بالايجاز في مكتوباتهم الى ان يقول "ومن المحقق ان عبد الحميد اقتبس هذه الطريقة من الامم المجاورة لاسيما الفرس ممن لم تكن حضارتهم ابتدائية كالعرب بل فيها المطول المسهب والمتشعب المتعب (١)

يرى القارئ فيما ذكرناه انه يميّز في اسلوب عبد الحميد وصفان بارزان فبينما لا يشك احد في ان الاول منهما وهو الاطالة في الكلام والتبسط في عرض الفكر منقول عن الفارسية يرى المحققون بان الثاني وهو الازدواج وتوازن الفقرات اصيل في العربية لما رأيناه من عدم وجود ما يدل عليه في الفارسية ووجوده في العربية منذ اقدم ازمانه على ان المتأمل فيما احتفظت به الآثار الفارسية من عصر عبد الحميد او قبله اصولها او تراجمها وما وصل الينا من معلومات عامة عن اساليب البيان في العصر الساساني قد يحصل على ملاحظات يمكن ان تلقي ضوءا على هذه الناحية من اسلوب عبد الحميد وان لا تكفي بوحدها ان تجعل اساسا لنظرية جديدة في هذا الموضوع من دون ان تدعم بدلائل اخرى. وهذه الملاحظات هي =

---

(١) راجع هذا الموضوع مفصلا في تاريخ الاساليب النثرية ص ١٥٥ — ١٥٩

١ ـ نعلم ان الكتب والرسائل الفارسية كانت تلقى في العصر العباسي في قالب فني يسمى صناعي مقرر وكان الكتاب يعنون بذلك عناية بالغة وكان يظهر فيها الميل الى الصنايع البديعية والمحاسن اللفظية بحيث كانت تعد من الحلل الادبية وتتجلى فيها الروائع الجمالية مما مر معنا في محله (١) ونعلم ايضا كما ذكرناه سابقا ـ ان تلك الحلل الفارسية لما عربها الكتاب المشهورون بدهاء ابرتقها وكانت تعد من الحلل الادبية العربية الاولى . ونعلم ايضا ذكرناه عن ابن نباته ونحوه ان قسما من هذه المترجمات احتفظت بشيء من اسلوبها الفني كما لاحظناه في ترجمة الكتاب التي نقلها الملوك العباسيون والتي نقلها البرمكيون .

٢ ـ اذا تأملنا في اسلوب بعض المقتطفات من تلك الكتب المترجمة التي وصلت الينا في تضاعيف الكتب التاريخية والادبية امثال كتب الجاحظ وابن قتيبة والمسعودي وغيرهم نجد انها لا تخلو عن نوعين فانها اما مقتطفة من كتب عملية غايتها التعليم والافهام فقط مما لا يقتضي المقام التفنن في اسلوبه او ماخوذة من كتب ادبية مما يهتم فيه عادة بتحسين الكلام والتأنق في التعبير كمدرر الرسائل والخطب والحكم الحكمية وما شاكل مما ورد في القسم الاول فجلّها من باب الانشاء المرسل الجاري على الطبع من دون تكلف صناعي في الانشاء في حين ان النقل المنقولة عن القسم الثاني كلها مصنوعة في قالب فني رائق والباب العام في اسلوبها الازدواج والتوازن . وقد نحسن فعلا لو نذكر لكل من هذين القسمين امثلة فيما يلي =

من القسم الاول .

ننقل القطعة التالية مما انتقاه ابن قتيبه عن كتاب الامين في اداب الحرب . " ولا يلزمن صاحب الجيش على حال من الاحوال ـ ان يستدير جنده عين الشمس والريح ولا يحاربن جندا الا على اعد الضرورة وعلى

(١) راجع ص ٤٥ وما بعدها من هذه الرسالة

وعلى حال لا يوجد معها من المحاربة بد ،فاذا كان كذلك فيجتهد صاحب الجيش ان يدافع بالحرب الى اخر النهار. وينبغي على كل حال ان يخلى بين المقتتلين وبين الذهاب والمجيء. وان كان الجند قد نزلوا على ماء واراد العدو ان يمنعوا من الماء فليس للوالي ان يحاربهم وبينه لئلا يحوجوا الى الجد في محاربتهم. (١)

والقطعة تقع في ثلاث صفحات من عيون الاخبار كلها على هذا النمط السهل الذي يعيد الى الذهن لسهولته ورشاقته اسلوب ابن المقفع. ومن موشى اخر مقتطف من نفس الكتاب اى كتاب الاثين في قواعد اللعب بالصولجان.

« من اجادة اللعب بالصولجان ان يضرب الكرة فدما ضرب خلسة يدير فيه يده الى اذنه ويميل صولجانه الى اسفل من صدره ويكون ضربه متشازرا مترفقا مترسلا. ولا ينفل الضرب ويرسل السنان خاصة وهو الحامية لمجاز الكرة الى غاية الرمى ثم الجر للكرة من موقعها (٢).

ومن النمط الثاني

ننقل القطعة التالية مما اختارها ابن قتيبة عن كتاب (التاج) لاردشير الساساني في وصية اردشير لكاتبه « اكتم السر ،واصدق الحديث ،واجتهد في النصيحة ،واحترس بالحذر ، فان لك على ان لا افعل بك حتى استاهل ذلك ،ولا اقبل عليك قولا حتى استيقن ، ولا اطمئن فيك احدا يغتالك . واعلم انك منيتاة رفعة قد تحلتها ،وفي طرمملكة قد تستزيلنه ،وفارم النار مجاملة عن نفسك ،وباعد النائر مشايحة من عدوك ،واقصد الى الجميل ادراعا لفضل ،وتحصن بالعفاف صونا لمروءتك.

(١) عيون الاخبار ١ – ١١٢ –١١٥ (٢) عيون الاخبار ١ – ١٣٣ –١٣٤

وتحسن عند ن بما تدرن عليه من حسن (١)

ومنها القطعة التالية من رسالة كتبها مور ابرويز الى ابنه شيرويه

« لا تومنن على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تغرينّ عليهم فيضجروا منك ، اعلمهم علماء تمرا ، وامنعهم منها جميعا ، وسس عليهم في الرجاء ، ولا توسع عليهم في العطاء (٢)

ومنها القطعة التالية ماخوذة من خطبة القاها هرمز بن كسرى انوشروان عند اعتلائه العرش.

« ايها الناس ميّلوا بين الامور المتشابهات ، ولا تسموا النسل رياء ، ولا الرياء موافقة ولا التوارة شجاعة ، ولا الظلم حزما ، ولا رحمة الله نقمة ، ولا سنون الفوت هوينا ، ولا البر بالقريب ملقا ، ولا العقوق موجدة ، ولا الشك استبراء ، ولا الانصاف ضعفا ، ولا الكرم معجزة ، ولا التبرم عادة ، ولا الاخذ بالفضل ذلا ... (٣)

وهذه الخطبة طويلة تقع في ثلاث صفحات من كتاب اخبار الطوال اكثرها من هذا النوع المتوازن .

ومن هذا القبيل كثير في كتب الادب والتاريخ لا نطيل بذكره.

وهنا يتساءل القارئ نفسه . هل كان هذا الفرق بين الاسلوبين موجودا في اصول هذه القطع الفارسية .

وهل كانت النصوص الاصلية مما ذكرناه في القسم الثاني موضوعة بعبارات متوازنة كما ظهر ذلك في تراجم تراجمها .... هذا ما نجوزه

---

(١) عيون الاخبار ١ – ٤٥ (٢) عيون الاخبار ١ – ١١

(٣) اخبار الطوال ٧٧ – ٨٠.

٣ – اشتهر الادب الفارسي (الساساني) بكثرة الحكم والمواعظ ونعلم انه نقل الى العربية عدد غير قليل من هذه الحكم كما انه ترجم الى هذه اللغة عددا كبيرا من الامثال الفارسية ومن التوقيعات وهي ما كان يوقعها الملوك او الوزراء تحت القصص المرفوعة اليهم وكانت تعد من القطع الادبية .

تشترك هذه الآثار كلها في انها مؤلفة من عبارات قصيرة موجزة لا تقع في اكثر من سطر او سطرين غالبا موضوعة في هيئة صناعية من خصائصها التوازن والسجع وما يوجد من هذا القبيل في اللغة الفارسية ووصلت اصولها الينا يشهد بانه ليس من هذه الجهة فرق بينها وبين ما يشبهها في العربية اي انها في اصولها الفارسية ايضا متوازنة مسجعة . بل ويدل بعض القطع منها الذي وصل الينا في اصله وترجمته معا ان ناقلي هذه الآثار كانوا يلاحظون ويراعون في نقلها حفظ الوزن والسجع بقدر ما كانوا يراعون حفظ المعنى لو لم يكن اكثر . من هذا القبيل توقيع انوشروان بالبهلوية " هَرْلِ رَوْذْخَوَذْ ، هرل خسپذ ، خاف وينذ (١)

اخذه عبد الله بن طاهر فوقع " من سعى وعى ومن لزم المنام رأى الاحلام " فهل يمكننا ان نقول ايضا ؟ اعتمادا على ذلك انهم كانوا يتبعون نفس الطريقة او طريقة قريبة منها في منشآتهم الادبية ؟...

هذا ما اراه محتملا .

محمد محمدي

بيروت

١٠ ايار ٩٤١

---

(١) المحاسن والمساوى ٣١٠